دار راشد للنشر
Dar Rashid Publishing

رواية

ليالي الأوراد

محسن أخريف

الرواية المرشحة للقائمة القصيرة

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

Rashid bin Hamad Al Sharqi Innovation Award

2019

الرواية المرشحة للقائمة القصيرة

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

Rashid bin Hamad Al Sharqi Innovation Award

رواية (ليالي الأوراد)
محسن أخريف
الرواية المرشحة للقائمة القصيرة
لجائزة راشد بن حمدالشرقي للإبداع
الطبعة الأولى 2019
رقم الطلب: MC-03-01-2648826
الترقيم الدولي : ISBN: 978-9948-37-231-8
التصنيف العمري: +13
تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتاب وفقاً لنظام
التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

الفجيرة دولة الإمارات العربية المتحدة
ص . ب. 7444 -الفجيرة
هاتف: 678 2222 9 971+ فاكس: 959 2222 9 971+
Website : www.darrashid.ae Email : Info@darrashid.ae
تصميم الغلاف: فيصل جواد
الإخراج الداخلي: Lakru Randika
التدقيق والمراجعة: فيصل جواد

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

الأفكار والآراء في هذا الكتاب تعبر عن آراء الكاتب ولا تعبر عن رأي دار راشد للنشر.

جميع الحقوق محفوظة لدار راشد للنشر، لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

رواية

ليالي الأوراد

المنجـز الإبداعـي العربـي فـي الفضـاءات الأدبيـة العالميـة ليغـدو الكتـاب العربـي طائـر الشـمس الـذي ينشـر إبداعـه تجليـات دافئة فـوق المسـاحات البيضـاء التـي حالـت دون تحليقـه فوقهـا عوامـل التسـويق لـه وإضاءتـه إعلاميـاً كمـا يسـتحق فالنتـاج أي نتـاج مالـم تتهيـأ لـه فرصـة الإعـلان عنـه والترويـج لـه وحظوتـه بالإهتمـام مـن خـلال الكتابـة عنـه أو فـوزه باحـدى الجوائـز الأدبيـة التـي تحظـى باهتمـام ومتابعـة جمهـور الأدب والثقافـة لايمكـن أن يكـون ملفتـاً للأنظـار، وهـذا بالطبـع يشـمل كبـرى النتاجـات الأدبيـة العالميـة ، ولعـل هـذا الهـدف كان الهاجـس الأول للرؤيـة التـي وضعهـا سـمو الشـيخ الدكتـور راشـد بـن حمـد الشـرقي رئيـس هيئـة الفجيـرة للثقافـة والإعـلام ، والتـي منهـا انطلقـت اللجنـة التحضيريـة فـي وضـع الأسـس فـي رسـم آفـاق تلـك الرؤيـة وحـددت آليـات العمـل لتنفيذهـا ،والتـي تمخـض عنهـا شـمول العـدد الأكبـر مـن المرشـحين للجائـزة بـدءاً مـن القائمـة الطويلـة ، فالقصيـرة ، فالمراكـز الثلاثـة الأولـى بعنايـة الجائـزة لطبـع نتاجاتهـم وفـق اسـتحقاق أقـرت بـه لجـان التحكيـم فـي فروعهـا السـبع، وتسـعى الجائـزة لإنجـاز ماوضعـت لأجلـه متخـذه الموضوعيـة عنوانـاً لمهنيتهـا ، عبـر اختيـار المحكميـن المتمرسـين والمعروفيـن بحياديـة أحكامهـم ، وعـدم التدخـل بقراراتهـم ، كيمـا تكتمـل صـورة مقاصـد النبـل مـن ورائهـا بصفتهـا تنشـد دعـم الإبـداع العربـي والمبـدع العربـي دون أن يخالـط الهـدف هـذا هـدف آخـر ، لتضـع نفسـها جهـة فاعلـة فـي الحـراك الإبداعـي العربـي إيمانـاً منهـا بـأن أرض العـرب موطـن الخصـب المعرفـي والنمـاء الحضـاري ، وليـس ثمـة غايـات تتخطـى حـدود رعايـة المنجـز ودعمـه وتقـديم مايكفـل المبـدع ونقـل منجـزه للأقاصـي البعيـدة مـن جهـات الأرض ، وبالتالـي فهـي تسـعى لخدمـة القـارئ

والكاتب على حد سواء ، وأخيرا إذا كان لابد من شهادة بحق تلك المشاركات فلا أدل على أهميتها شيء من آراء محكميها التي وثقت بتدوينهم إياها بمعرض توصيفهم لها والمقدمة لأمانة الجائزة التي تحتفظ بها كوثيقة تحفظ ألق الأسماء التي ندعم كي تأخذ من المساحات المضيئة ماتستحق ، مغتبطون لما آلت إليه النتائج ولما ورد الجائزة من حجم فاق التوقعات من المشاركات التي نافت على ال٠٥٩ مشاركة حفلت بتنوع ثر ونصوص نوعية كشفت عن مواهب كبيرة وقدرات عالية في مجالات الجائزة كافة،ممايقتضي منا الإشادة بها مشيرين لآراء المحكمين ومشيدين بدقة أحكامهم التي كشفت عنها النتائج ، الحمد لله على نجاح المسعى ، والحمد له جل في علاه على بلوغ المطمح بحدود الخطوة الأولى لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع، والتي نضع ثمار قطافها الأول على مائدة قراءاتكم مشفوعة بالمحبة .

الأمانة العامة

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

الدورة الأولى 2018-2019

تقديم عام

هـذه واحـدة مـن الروايـات التـي اختارتهـا لجنـة التحكيـم، مـن بـين عشـرات الروايـات التـي تقدمـت لنيـل جائـزة راشـد بـن حمـد الشـرقي للإبـداع، فـي دورتهـا الأولـى، ولـم يكـن الاختيـار سـهلاً، لمـا تميـزت بـه جـل الروايـات المشـاركة مـن جـودة عاليـة، ممـا يـدل علـى أن الروايـة العربيـة اليـوم، تعيـش نضجـاً ملحوظـاً فـي الشـكل والمضمـون، وثمـة اهتمـام حقيقـي بالذاكـرة الفرديـة والجماعيـة، التاريخيـة والشـعبية القريبـة، وربـط الماضـي بالحاضـر، وهـذا يـدل علـى انشـغال جـاد بموضوعـة الهويـة الثقافيـة عمومـاً، حيـث التطـرق إلـى حـال الأمـة العربيـة الصعـب الآن، حتـى عندمـا يكـون الموضـوع الـذي تتمحـور حولـه الروايـة فرديـاً، وانعكاسـات هـذا الحـال العـام علـى مصيـر الأفـراد، وتنوعـت الثيمـات حـول قضايـا عديـدة مهمـة مرتبطـة بالوضـع العـام فـي المجتمعـات العربيـة وقضايـا المـرأة والحـب والطفولـة والطبيعـة.. وغيرهـا، عبـر وعـي متفتـح يسـتمد مرجعياتـه مـن الثقافـة المحليـة ومـن ثقافـات أخـرى، كمـا تنوعـت البنيـات الروائيـة بـين الكلاسـيكية الوصفيـة وتيـارات الواقعيـات التقليديـة وصـولا إلـى التجريبيـة والحداثيـة والميتاسـردية، التـي يتأمـل فيهـا السـارد مـا دونـه ويعلـق عليـه.. وصـولاً إلـى الأحـدث، التـي تمـردت علـى الشـكل المسـتهلك ولـم تعـد أسـيرة لـه.

هـذا ويُلاحـظ أيضـاً ارتفـاع منسـوب الحريـة ومسـاحة ممارسـتها

فـي التنـاول والجـرأة بالتعبيـر عـن مختلـف المواضيـع والقضايـا بـلا تـردد أو توريـات، بمـا يتجـاوز التابوهـات القديمـة، ويمكننـا أن نؤشـر.. بـل ونؤكـد بـكل ثقـة، علـى أن الروايـة العربيـة بخيـر وسـوف يكـون لهـا مسـتقبل أفضـل، يعـزز مكانتهـا ومسـاهمتها التـي لا تقـل أهميـة عـن مسـاهمة روايـات الثقافـات الأخـرى فـي مجمـل الأدب العالمـي.

وهكـذا تأتـي أهميـة جائـزة راشـد بـن حمـد الشـرقي للإبـداع، باعتبارهـا تكريمـاً ودعمـاً لأبـرز الفنـون الإبداعيـة اليـوم فـي العالـم العربـي، إلـى الحـد الـذي أطلـق فيـه البعـض عليهـا تسـمية «الروايـة ديـوان العـرب»، بـل وفـي العالـم أجمـع، حيـث أصبحـت الروايـة تتصـدر الكـم والنـوع فـي إنتـاج الكتـب ومبيعاتهـا، وتحظـى باهتمـام القـراء الأول، لأنهـا مـرآة تعكـس حال المجتمع والفرد بكل أبعـاده الخارجيـة والداخليـة، ولمـا تنطـوي عليـه مـن قـدرة لاحـدود لهـا فـي اسـتيعاب شـتى أدوات التعبيـر الإنسـاني الكتابيـة، وتقـدم لمتلقيهـا المتعـة والمعرفـة، ورؤيـة عـن الـذات والمحيـط، فتعينـه فـي توسـيع فهمـه لهـا إضافـة إلـى شـحذ حواسـه بمـا يجعلـه أكثـر رهافـة وحساسـية تجـاه مـا هـو إنسـاني، يتعلـق بالخيـر والحـق والجمـال والآمـال والآلام... فـي زمـن يضـج بالتقلبـات والقسـوة والعنـف.

تجـدر الإشـارة إلـى أن التقييـم الـذي تم الوصـول إليه، كان منصباً علـى العمـل الروائـي أولاً وأخيـراً، حيـث اتبـع مجلـس الأمنـاء والمنظمـون لجائـزة راشـد بـن حمـد الشـرقي للإبـداع، أسـلوباً موضوعيـاً ومعياريـاً نزيهـاً. بعثـوا النصـوص، المسـتوفية للشـروط، إلـى أعضـاء لجـان التحكيـم، دون أسـماء مؤلفيهـا وبـلا أيـة إشـارة تـدل عليهـم أو علـى جنسـهم أو جنسـياتهم، هـذا إلـى جانـب إخفـاء أسـماء وجنسـيات المحكميـن حتـى عـن بعضهـم البعـض،

والطلب منهم تقييم الأعمال الروائية بشكل معياري يعتمد الأرقام المصحوبة بالتبريرات النقدية الموضوعية... وهكذا رصدت القراءات التقييمية جوانباً وبُنيات أساسية عديدة في كل رواية، ومنها، على سبيل المثال لا الحصر: البناء الفني؛ بما يشمله من عناصر فنية وتقنيات يستعين بها الروائي في بناء روايته، وبخاصة الحبكة، التشويق، البداية والنهاية.. وغيرها. بناء الشخصيات؛ ولا سيما قوة الوصف والتصوير والقدرة على الإمساك بزمام تطورها وعدم الانزياح عن الخطوط التي يرسمها لها، والبناء النفسي لها بطبيعة الحال. البناء اللغوي؛ وما يتضمنه من قوة الجملة السردية وبلاغتها وقدرتها على إيصال المعاني المنشودة، ورسم المكان والشخصيات وإيضاح الأفكار إلى جانب سلامة اللغة. الاشتغال الموضوعاتي؛ والذي يرتكز على الخطوط والمحاور والموضوعات التي يعالجها الروائي في عمله، ومدى براعته في إيفائها حقها. البناء التخييلي؛ وهنا يكون دمج العناصر الروائية كلها من أجل بلورة نص متخيل، سواء كان متكئاً على الواقعي أو التاريخي أو التخييلي، أو منطلقاً منها ومازجاً بينها، وتظهر براعة الروائي في سبك نصه بلغة سردية ناضجة لافتة... يضاف إلى هذه العناصر والتفاصيل، الاستعانة بالخبرة والذائقة والمتعة والفائدة التي يمنحها النص الروائي للقارئ المفترض، بطريقة أدبية إنسانية راقية، بعيدة عن الترويج لمفاهيم العنف والعنصرية والكراهية والعداونية.

هذا وقد جاءت مجمل تقييمات المحكمين متقاربة جداً في اختيار الروايات للقائمة الطويلة، ومن بعدها القصيرة، ومن ثم جاء التوافق التام عند اللقاء بينهم وتبادل الآراء والنقاش.. وصولاً إلى اختيار الروايات الفائزة.

سيجد القارئ في هذه الرواية، الكثير مما تمت الإشارة إليه سابقاً، الأمر الذي يجعل منها نصاً إبداعياً يضاف إلى عموم المدونة الروائية العربية المعاصرة، ساهمت في تقديمه وتسليط الضوء عليه جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع، التي أطلقتها هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام بمبادرة كريمة من سمو الشيخ الدكتور راشد بن حمد الشرقي رئيس هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام، والتي تهدف إلى رعاية المواهب والطاقات الأدبية والنقدية العربية، مسلطة الأضواء على أسماء أصحابها ودعمهم مادياً ومعنوياً، والعمل على نشر وتسويق الأعمال الفائز وخدمتها إعلامياً، والسعي لنشرها في المحيط العربي والعالم، حيث المتلقي في الطرف الآخر والذي تسعى الجائزة لأن تكون نافذته التي يطل منها على فيض الجمال العربي بنتاجات مبدعيه.

لجنة تحكيم الرواية

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

الإهداء ...

إلى والدي ..

إلى مريم ..

إلى آدم .. آملاً في غد أفضل .

إشارة:

أحداث وشخصيات هذه الرّواية متخيّلة، لذا فكلّ تشابه بينها وبين وقائع أو أشخاص حقيقيّين هو مصادفة لا غير.

م.أ

الفصل الأول

(ليلتي الأولى)

لم أفطن لشيء. كانت اللّيلة الأولى ليلة غريبة، بيضاء، بلا محصّلة. كلّ شيء كان ينمحي بمجرّد تفكيري فيه، حتى الأثر لا يبقى. تنمحي كلّ الأفكار، كلّ الهواجس، كلّ الأحاسيس.

لم أهتم، في بداية الأمر، باختيار مكانِ اضطجاعي. خمّنت، مع نفسي: إنّه مكان مؤقّت، فإمّا سيُطلقَ سراحنا غداً صباحاً، أو سيتمُّ ترحيلنا إلى مكان آخر. لكنّي وجدتُ نفسي، دون أن أدري، أتخيّر الأمكنة، أو بالأحرى أفتّش عن الزّاوية الّتي من الممكن أن أرتاح فيها أكثر. فكرتُ، دون وعي كبير، بأن أضع رأسي في اتجاه القِبلة. لم أجد زاوية تسمح لي بذلك؛ كانت الزّاويتان مستغلَّتين بجسديْ شريكيَّ في الحجرة، لذلك استسمحت أن أضع بطّانيتي بينهما. لم يجيبا، لا بالقبول ولا بالرّفض. هَمْهَمَا معاً في نفس اللّحظة، في شبه اتفاق. هَمْهَمَا كأنّ الأمر لا يعنيهما من قريبٍ أو بعيد. لم يسألا عن سبب هذا الطّلب، الّذي يبدو غريباً مادام هنالك متّسعات وزوايا فارغة في الحجرة، بل ربّما قالا في نفسيهما إنّه يختار مكان نومه، كأنّ هناك فرقاً بين جوانب هذه الحجرة. كلّها تعدُ بشيء واحد. وتحمل المعاناة نفسها والهمّ نفسه. وقبل أن أنطق بطلبي، كنتُ أقول في نفسي، ربّما سأجني

من سؤالي هذا بعض السّخرية والاستهزاء، فيقول أحدهما مستهزئاً: أوَ تظنّ نفسَك في فندق؟! هل تستعدُّ لإقامة طويلة هنا؟! فتكون هذه المسألة بداية غير موفّقة في التّعارف مع رفاق الحجرة.

لكنّ الأمر لم يُشغلهما على الإطلاق. خمّنتُ أنّ في الأمر خيراً كثيراً بالنّسبة لي... سأنوِّع في أمكنة الاضطجاع بين اللّيلة والأخرى، لعلّي أجد في إحداها مُستراحاً ولو إلى حين.

(نظام خاصّ)

كنتُ، في البداية، ثالث اثنين، عرفتُ اسميْهما في اليوم الموالي، علي الخبّاز ومحفوظ العرايشي. عَدَدنا في الحجرة لم يكن كبيراً. كنّا معدودين على رؤوس أصابع اليدين. لم نتعد العشرة أفراد أبداً. لم نزد عنها أبداً، ولم ننقص إلاّ لماماً في الأسابيع الأولى، فحين يرحَّل أحدنا إلى مكان مجهول، يُؤتى بغيره.

تغذيتنا -أيضا-كانت محسوبة بميزان صارم، لا يُغني، ولا يُشبع، لكنّه يُبقي ولا يميت. حتّى الألم الّذي نتجرّعه، كان وفقَ النّظام نفسه ، لا يزيد فيُميت. ولا ينقص فيشعِر بالطّمأنينة والرّاحة. يتركوننا على قيد الألم والانتظار إلى أجلٍ غير معلوم. كأنّ المكان فندق تنتظم الإقامة فيه وفق نظامٍ خاصّ جدّاً.

الحجرة في الأصل لم تكن سوى ممرٍّ طويل وواسع قليلاً. أُغلقت نهايته وتركت فقط حفرة تنزل إلى قَبْو. لم أتخيل المكان سوى هكذا؛ ممرٌّ أُغلقت الأبواب الّتي تصلُ إلى الحجرات.

على حجرتين فيما أخال. يظهر هذا من خلال أثرَيْ بابيهما غير المحي نهائيّاً على الجدار. عملٌ غير متقن، ربّما أنّه كان يقتضي السّرعة. هل كانوا مستعجلين على وضعنا في هذا المكان إلى هذه الدّرجة؟! وحدَه الباب الموصلُ إلى المرحاض تُركَ. باب خشبيّ مهترئ من الأسفل. لا يحتوي على أيّ قفل أو مزلاج أو أيّ أداة من أدوات الإغلاق سواء من الخارج أو من الدّاخل، لكنّه كان يغلق تلقائيّاً لفقدانه التّوازن بفعل انتفاخ لوحه الخشبيّ بالماء. وهذا كان يَفي بغرض التمتّع ببعض حقّ الستر والخصوصيّة.

بدت الحياة لي فسحة زمنيّة تحمل الكثير من المفاجآت القاسية؛ وأيّ قساوة أفظع من أن أجد نفسي فاقد الحرّيّة على الرّغم من أنّني لم أقترف أيّ ذنب!

مع مرور الوقت أحسستُ بجسدي يتحوّل إلى كتلة مترهلة يصعب عليّ تحريكها أو التّنقل بها، على الّرغم من أن لا مكان لي أذهب إليه حقيقة. هو واقع نفسيّ أعيشه إذن. ربّما الدّم تخثر في العروق ولم يعد يجري بالسّرعة الّتي ينبغي أن تكون.

سألت عليّ الخبّاز: (هل من الممكن أن يكون وزني قد زاد كثيراً؟!)

حدّق فيّ. ولم تسعفه أيّة عبارة سوى: (ربما!)

لا شيء يقينيّ هنا أو يمكن التّحقق منه.

مساحة صغيرة زجّ بنا فيها. سقفها غير عالٍ كثيراً، مسقوف بطريقة تقليديّة حيث ما تزال الألواح الخشبيّة تظهر مشكّلة فسيفساء توحي بالمتانة والصّلابة، لا شيء يعكّر صفو رؤيّة

السّقف سوى العناكب الّتي بنت فخاخها الواسعة منذ زمن طويل. وفي نهاية المكان، أدراج ضيّقة تؤدي إلى قبو واطئ سقفه، يحتل نصف مساحة الحجرة تقريباً. ربّما كان يستغلّ مطمورة، يخبّأ فيها العسل والسّمن والزّرع كلّما جاء الموسم خصيباً. لم ألاحظ أن نصف أرضية الحجرة الممر تختلف عن النصف الباقي، إذ كانت تتحرك قليلا كلما نهض أو تململ أحد، إلا بعد أن اكتشفت القبو؛ سقفه كان نصف أرضية الحجرة.

الأرجحُ أنّ المكان كان جزءا من بيت فلاح بسيط، بني في البدايات الأولى للاستعمار؛ أو كان ملحق بيت فلاح من الطّبقة المترفة.

كلّ شيء دالّ على حياة هانئة عِيشَتْ فيه. لكنْ من كان يتوقّع أنّ جدران هذا البيت ستكون شَاهدةً على حيوات الانتظار، وموت الأمل في النّفوس؟! حيواتٌ كثيرة عِيشَت فيه، لكنّها حياة واحدة متشابهة متكرّرة بتعديل بسيطٍ في الإيقاع.

❖ ❖ ❖

كثيراً ما تعبر مخيّلتي صور أصحاب المكان، تظهر صورهم بوضوح شامل، منهم عَليّ الخبّاز ومحفوظ العرايشي، ورجلٌ ثالثٌ كنّا نلقّبه «التّوربيّون»، ولم نخاطبه مطلقاً باسم آخر. كان عليّ الخبّاز هو من أطلق عليه هذا اللّقب، الّذي يعني الإعصار. أطلقه دون تفكير، ودون معرفة مسبقة. حين أدخلوه علينا صاحَ الخبّاز: (جاء التّوربيّون). لم يسأله حينها أحد منّا عن معنى ذلك، أو هل كان على سابق معرفة بالرّجل؟! كما أنّ الزّائر -المقيم-الجديد لم يرد أو يستهجن، ولم تظهر عليه علامة من علامات الاستغراب، كأنّه وافق ضمنيّاً على هذا

اللّقب، فأصبحنا نناديه به. لم أسأله بعدها أبداً عن اسمه، ولا أظنّ أنّ أحداً آخرَ فَعَل. أمّا سبب استقدامه وإقامته بيننا فقد كان معروفاً بالتّرجيح.

(أحلام التّوربيّون)

في صباح اللّيلة الأولى الّتي قضاها التّوربيّون بيننا، ودون سابق تهييئ لنا، استرسل في سرد سلسلة من الوقائع... وقائع كثيرة منفصلة عن بعضها البعض، كأنّها حكايات صغيرة، ثمّ ختمها بجملة: (هذا ما رأيته ليلة أمس.)

ساد صمت ثقيل في الحجرة. دام دقائق كثيرات إلى أن خاطبه عليّ الخبّاز، بنوع من الفضول المَشُوب بالسّخرية:

– ما أمر هذه الأحلام؟!

– إنها ليست أحلاماً إنّها رؤى.

– أتَحسِب نفسك نبيّ اللّه يوسف؟!

– الرؤيا دوماً موجودة، قَبْلَ يوسف وبعده.

ثمّ أردف: يوسف لم يكن هو من يحلم، بل كان يفسّر الأحلام!

– صحيح...

أجاب عَلِيٌّ باقتضاب، فيما يُشبه تهدئةً وإنهاء للنّقاش. فربّما عرف في هذه اللّحظة أنّ اللّقب الّذي أطلقه على الرّجل لم يجانب الحقيقة. وهذا ما سنتيقّن منه كلّنا، فالتّوربيّون فتح الموضوع كَرَّة أخرى بشكل غير متوقّع، متوجّها بالكلام إلينا جميعاً، في صيغة الإفراد: (وأنتَ ألا تحلم، ألا ترى أشياء في

منامك؟! أخبرنا عمّا حلمت به البارحة أو ما قبل البارحة.)

انتظرتُ أن يتطوّع أحد لمواجهة التّوربيّون. لكنّ لا أحد فعل. فقلتُ، مراوغاً، في محاولة لتجاوز الموضوع بصفة نهائيّة:

– لقد ماتتْ جميع أحلامي هنا. سواء ما كنت أطمحُ إليه أو ما كان يؤنسني من أحلام في نومي. وقد دفنتها هنا منذ اليوم الأوّل.

❖ ❖ ❖

لم يكن التّوربيّون يصدّق أنّ ما يحلم به مجرّد أحلام وكوابيس لا معنى لها سواء في الحاضر أو في المستقبل. قلنا له، في الصّباحات التّالية، إنّ الأمر مجرد أضغاث أحلام، لا أقلّ ولا أكثر، وإنّها لا تستحقّ منه أن يبحث لها عن أيّ تفسير كان. مجرّد تداخل غريب للأحداث والوقائع. تماماً كما تشابكت الأحداث في الخارج، إلى أن تمّ اقتيادنا إلى هنا؛ هل نملك تفسيراً واضحاً لهذا الأمر؟! هل نعرف نهايةَ هذا الحلم الرّهيب؟ هل نملك تفسيراً لمصير هذا الكابوس الذي نعيشه الآن؟

ومع كلّ صباح كنّا نظنّ أنّ التّوربيّون قريبٌ من الاقتناع برأينا. وكنتُ في قرارة نفسي أخشى أن يقع هذا الأمر. فقد كنّا سنخسر كثيراً لو حصل. لقد كانت الأحلام الّتي يسرد علينا تفاصيلها، ثم يشرع في تفسيرها، كأنّها رؤى، تسليتنا ومؤنستنا الوحيدة. ننتظرها بفارغ الصّبر، رغم أنّنا نتظاهر بعكس ذلك. ونستحثّه، في دواخلنا، على مواصلة تفسيراته وتأويلاته، رغم أنّ ألسنتنا تقول العكس، وتحاول في كلّ مرّة أن تتفّه أحلامه ومناماته. لكنّ التّوربيّون لم يكن يأبه لأيّ شيء قد يقف في طريقه، وفي طريق أحلامه؛ فدُونَ أن يستأذننا،

يَشرع في الحكي، مناماً وراء منام، ثمّ لا ينتظر منا أن نشاركه التّفسير. يبدأ في تفسيراته. وحتّى إن صرّح أحدنا بتأويله للمنام، على سبيل تزجية الوقت لا غير، فالتّوربيّون لا يكترث له، ولا يدخل معه في أيّ نقاش. أمّا الحقيقة، الّتي كنّا نقرّ بها جميعاً، فهي أنّ تفسيراته كانت مفارقة لتفسيراتنا، الّتي لم ننطق بها إلا لماماً.

(السّير ليلاً)

كان التّوربيّون مهووساً بسرد مناماته وتفسيرها. إلا أنّ أغربَ ما يميّزه هو سَيْره ليلاً وهو نائم. يسير في الظّلام ثمّ يعود إلى مكان نومه دون أن تعفس قدماه الكبيرتان الحافيتان أيّ واحد منّا.

في اللّيلة الأولى، تفاجأتُ بالأمر. ظننتُ أنّ ضيفاً جديداً قد أحضروه، فور اعتقاله من الشّارع أو البيت، أو بعد جلسة طويلة من الاستنطاق والتّعذيب النّفسي في مكان آخر، إلاّ أنّ عدم رؤيتي لأيّ بصيص من الضّوء، وعدم سماعي لصرير الباب أو صوت فتحه جعلني أبطِل هذا التّخمين.

قلتُ في نفسي إنّ التّوربيّون ربّما يكون مدسوساً بيننا لأجل هدف ما... ربّما من أجل أن يقتلنا واحداً واحداً. أو أن يُخيفنا ويرهبنا، جاعلاً، على سبيل الافتراض، أوقات استراحتنا من التّعذيب أوقات تخويف وترويع ووعيدَ أيضاً. خِفْتُ، ونهضتُ من مَرقدي على الأرض. وقفتُ مسمَّراً، ملتصقاً بالجدار، حابساً أنفاسي علّها لا تكون سبباً في اقتياد التّوربيون إليّ، إلاّ أنّه عاد إلى مكانه وتمدّد، وربّما، استغرق في نوم عميق كأنّ شيئاً لم يكن.

لم أنمْ بعدها. ظلّتْ عيناي مثبّتتين تجاهه؛ تجاه مضجَعه، على الأرجح، إذ أنّي لم أكن أرى أيّ شيء. فكتلة جسم التّوربيّون كانت قد اندمجت في السّواد الجاثم على المكان.

حين بدأ القليل من الضّوء يتسلّل إلى الحجرة، مانحاً إيّاي إمكانية الرّؤية، وجدتُ عينيّ مازالتا موجّهتين نحو التّوربيّون. كان ممدّداً وكأنّ شيئاً لم يحدث، وكأنّه لم يبرح مضجعه، الّذي ليس سوى بطانية رقيقة، عليه أن يختار، مثلنا، إمّا أن يفترشها أو يتغطى بها، إذ لم تكن تكفي للغرضين معاً. حينئذ أغمضتُ عينيّ قليلاً بعد أن غَشيَني شعور بالاطمئنان تجاهه. اطمئنان المستسلم لقدره لا أكثر.

في الصّباح لم يتحدّث أحدنا عن الموضوع. هل أكون الوحيد الّذي فطن لهذه الواقعة؟! لا أظنّ ذلك. فهل شهد الكلّ الواقعة ولا أحد يريد أن يصرّح بها؟! كأنّ الجميع يريد أن يمحيها من ذاكرته نهائيّاً، بل ربّما، ظنّ كلّ واحد منّا أنّ الآخريْن لم يتفطّنا للأمر ففضّلَ الصّمت.

ظلّ الصّمت حارسَ صباحنا ذاك، إلى أن كسّره التّوربيّون حين شرعَ في سرد حلمه: (رأيتُ بأنّني كنت نائماً بجامع صغير جدّاً، كأنّه خلوة في مكان بعيد نوعاً ما. لم يظهر ليَ هل هو مكان عالٍ في الجبل، أم مكان بعيد في ربوة على البحر. فلم يكن نوع الهواء يعلن عن طبيعة المكان.

كنت كالمخدّر الّذي لا يقدر على فعل شيء، ففي كلّ مرّة كنت أحاول فيها أن أستيقظ من أجل الصّلاة لا أستطيع. سمعتُ صوت المؤذن، فحاولتُ أن أستجمع قوّتي وأقوم، لكن دون جدوى، كلّ ما استطعت أن أقوم به هو فتح عين واحدة. رأيتُ بها بعض النّاس يسرعون الخطى نحو المحراب الأخضر.

أنـاس مربوعُـو القامـة يلبسـون جلابيـب بنفـس اللّـون والشّـكل، كأنّها خِيطـتْ عنـد خيّـاط واحـدٍ، ومـن الثّـوب نفسـه.

لـم أسـتطع النّهـوض، ولا اسـتطعتُ أن أفتـح عَيْنِـيَ الأخـرى. لكنّـي تبيّنـت أنّهـم تسـعة أشـخاص إضافـة إلـى الإمـام؛ كيـف خطـر ببالـي أن أعدّهـم؟! لسـتُ أدري، ولا أريـد أن يسـألني أحـد عـن هـذا.

حاولـتُ أن أقـوم بسـرعة لألحـقَ صـلاةَ ركعـةِ معهـم، دون جـدوى. لـم تكـن عضلاتـي تعمـل، فـلا قـدرة لهـا علـىً الحركـة. يئسـتُ مـن أمـر القيام، فاستسـلمتُ.

سـلّموا. انتهـوا مـن صلاتهـم. دارَ الإمـام جِهتهـم. وسّـعوا مـن الحلقـة حولـه. صدحـوا بأدعيتهـم. وهمّـوا قيامـاً جميعهـم فـي وقفـة رجـلٍ واحـد. بـدأوا يُغـادرون الجامـع كمـا جـاؤوا، دون أن ينتبهـوا إلـيّ؛ كيـفً ذلـك وأنـا ممـدّد بجسـمي الضّخـم قـربَ البـاب تمامـاً؟!

خرجوا مـن البـاب، الواحـد تلـو الآخـر، وفـي بعض الأحيـان مثنـىٍ مثنـى. بقـي الإمـام وحـده بضـع دقائـق. قـام هـو الآخـر متّجهـاً نحـو البـاب. حاولـتُ أن أناديـه: آلفْقيهْ...آلفْقيـهْ! دون جـدوى كأنّ صوتـي أسـمعه أنـا وحـدي فقـط. اتّجـه الفقيـه نحـو البـاب بعـد أن أطفـأ أضـواء الصّـفّ الأوّل. حاولـتُ أن أرفـع صوتـي أكثـر منادياً علـيّ. دون أيّ أثـر فـي الواقـع.)

لـم يتطـرّق التّوربيّـون أبـداً إلـى مسـألة سـيره ليـلاً، بـكلّ حرّيّـة وثقَـة، دون أن يعفـس أيّ واحـد منّـا، إلـى أن عـاد إلـى فراشـه، كأنّـه فـي بيتـه. إلا أنّـه بعـد لحظـات طويلـة مـن الصمـت قـال: (الغريـب فـي الرؤيـة بالنّسـبة لـي هـو أنّنـي لا أصلـي)، ثـم صمـتَ.

(مُقيمُون جُدد)

خلال أيّام، صار المحبس يتضمّن أناساً من مناطق مختلفة جدّا، من الجبال ومن المدن، عرباً وأمازيغَ، مختلفين في اللّهجات. لم نعرف هل كان ذلك محض مصادفة، أما أنّه مقصود. صرنا عشرة في الحجرة، بعد أن جيء بثلاثة أفراد دفعةً واحدةً. وهو أقصى عدد اعتقدتُ أنّ الحجرة الممرّ يمكن أن تحتمله وإلا انهَارَ سقف القبو.

فُتِح الباب. كانوا معصوبي العينين، قادوهم إلى الدّاخل دون أن يزيلوا عَصابَاتهم. أُغلِقَ الباب. بَقوا واقفين أمام الباب لا يدرون ما يفعلون ولا أين هم على الأرجح. في يديّ كلّ واحد منهم بطّانية وصَحنٌ من قصدير. بقينا واجمين لا ندري ما نفعل بهؤلاء الضّيوف الطّارئين؛ أنرحب بهم ونزيل عصاباتهم أم نتركهم هكذا، فلا فرق هنا بين من يعيش معصوب العينين ومن يحيا بعينين مفتوحتين؟

تطوّع عليّ الخبّاز، أَقرَبنا إلى الباب، بإزالة عِصَابَات الثّلاثة، عِصَابَةً عِصَابَةً، بعد كلمات تهدئة روع، فلَم تكن كلمات التّرحيب لائقة بهذا المكان. ثم ساعدهم في إيجاد مكان للاضطجاع. لسبب نَفسِيّ فضّلوا أن يضطجعوا جنب بعضهم البعض. لم نسألهم عن أسمائهم إلا في الصّباح.

(تقويم التّوربيّون)

بعد عدّة أيّام، صارت اللّيالي متشابهات، بل صرتُ لا أفرّق بينها أهي اللّيلة العاشرة أم الحادية عشرة أم غيرهما؟!

صارتِ اللّيالي متشابهات، إلا أنّنا، نحن الثّلاثة الّذين دشنا

هـذا المـكان: علـيّ الخبّـاز ومحفـوظ العرايشـي وأنـا، صرنـا نفـرّق بينهـا بمنامـات التّوربيّـون. ليالينـا غيـرُ مرقّمَـة، غيـرَ أنّهـا أصبحـت معروفـة بمناماتـه. وهكـذا أضحـى تأريخنـا: (اللّيلـة الّتـي حلـم فيهـا التّوربيّـون بكـذا وكـذا...)، لقـد بـات لأحلامـه فائـدة ظاهـرة وملموسـة على أيامنـا ولياليـنا سـواء صدّقناهـا أم لا. صعـب أن يفقـد الإنسـان الإحسـاس بالزّمـن، فيصبـح تائهـا هلاميـا فـي الملكوت، تتداخل لديـه السّـاعات ثم بعـد ذلـك الأيـام فالشـهور، وبعدهـا الفصـول. ينسـى كل شـيء وتتبعثـر فـي ذاكرتـه الوقائـع والأحـداث، فـلا يسـتطيع القبـض عليهـا. وبعـد مـدّة تصبـح كأنّهـا لـم تكـن ولـم تقـع. كأنّهـا كانـت محـض تخيّـلات لا أكثـر. بفضـل أحـلام التّوربيّـون تجنّبنـا هـذا. صـارت أوقاتنـا منظّمـة علـى إيقـاع أحلامـه، بـدءاً مـن اليـوم الأول لقدومـه.

مـن غيـر أن أدري بـدأتُ أطمئـنّ إلـى أحـلام التّوربيّـون وأعتقـد بحقيقتهـا، بـل أصبحنـا، جميعـاً، نسـتكين إلـى تصديقهـا. صرنـا نتمنـى للتّوربيّـون أحلامـاً سـعيدةً ورائعـة قبـل أن ينـام، وأضحينـا حريصيـن علـى أحلامـه مـن كلّ سـوء. ومـع كلّ صبـاح نسـارع إلـى مطالبتـه بسـرد وتفسـير حلمـه الجديـد.

ودون اتفـاق، لـم يسـأله أحـد منّـا: (متـى سـتتحقّق رؤاك؟!) ولـم يتجـرّأ أحـد أيضـاً علـى مواجهتـه، بـأنّ لا حلـمَ مـن أحلامـه قـد تحقّـق. إذ لا أحـد منّـا بمسـتطاعه تحمّـل عواقـب قطـع علاقـة الاطمئنـان والإيمـان الّتـي عقدناهـا، خفيـة عـن بعضنـا البعـض، تحـت سـقيفة هـذا المـكان.

❖ ❖ ❖

اليـوم يعقـب اليـومَ ولا شـيء حـدث، لا هـم قدّمونـا لمحاكمـة، ولا هـم أطلقـوا سـراحنا، ولا هـم نقلونـا إلـى غيـر هـذا المـكان. بقينـا فـي المـكان نفسـه ، لا نبرحـه. هـل نكـون ضحايـا عصابـة

اختطاف لا أكثر، وهم الآن يتفاوضون مع عائلاتنا من أجل فدية؟! خامرني هذا الشّكّ، الخاطئ، فجأة، فصرّحت به لرفاقي دون رويّة، ناسياً أنّ ظروف اختطافي تقول عكس هذا. سارعوا لنفي الأمر، مؤكّدين بسرعتهم هذه بأنّهم لم يفكّروا في هذا الاحتمال مطلقاً، ففي الأوّل والأخير ليسوا أصحاب مال وجاه حتى يخطّط أحد لهذا الأمر.

كان تصريحي الجملةّ الّتي أفاضت كأس بَوحهم عن حياتهم السّابقة، حياة قبل أن يجدوا أنفسهم هنا. كأنّهم كانوا ينتظرون هذه الجملة-القَطرة، الّتي أفاضت بالبوح كأسَ نفوسهم.

(يْكِن)

كان يْكِنْ واحداً من الثّلاثة الّذين أكملوا بهم العدد عشرة. كان من الأَطلس الصّغير. أمازيغيّ، كان أبوه يأتي به بين الحين والآخر لكي يرافقه في ورشات البناء. وبفضل هذا تعلّم العربيّة. معظم رفاقه الّذين بقوْا في القرية لا يعرفون غير الأمازيغيّة، والقليل منهم من يستطيع أن يتهجى كلمات قليلة بالعربيّة الدّارجة. يحمد يْكِنْ الله على هذا، فعلى الأقل هو الآن يعرف إلى أيّ بلد ينتمي، ويستطيع أن يفهم باقي المغاربة ويتخاطب معهم. يَفهم معاناتهم ويتقاسمون معه معاناته، ومنها حياة هذا المكان.

كان يْكِنْ يستعدّ للاستقرار بالدّار البيضاء. عاد إلى قريته لكي يَختِم، ويكلّل ما بدأته أمّه. لقد اختارت له الزّوجة، واتفقت مع عائلتها على كلّ شيء، ولم يبق سوى قدومه هو ليلة العرس؛ ليلة واحدة، ثمّ بعدها يسافر بزوجته مع متاعها القليل إلى المدينة.

لم يصل يْكن إلى القرية. اختطفته الأيادي إيّاها، وهو في منتصف الطّريق. أنزلوه من الحافلة، بدون أيّ سؤال أو كلام طويل، فقط أُمرَ بأن يرافقهم. كانّوا ثلاثة ورابعهم انتظر فيً السّيارة الّتي لَا تحمل أيّة علامة تدلّ على انتمائها لحظيرة سيارات مؤسسة ما.

بقيتِ القرية تنتظر على بَكْرة أبيها، فعُرس في القرية هو عرسَ الجميع بدون استثناء. القرية تتشارك تْوِيزَا كلّ أمر، والعرس تْوِيزَا للفرح يشترك فيه الجميع.

بقيتْ عائلة الزّوجين، وخاصّة عائلة الزّوجة، تنتظر على أحرّ من جَمر بردِ الجبال. وتحرّك ماء الكلام السيء في أفواه الكثيرين. وبدأ البعض في التكهّن بمصير الزّوجة التي لم يدخل بها بعد.

انتظر الجميع نهاراً ثمّ ليلة، ثم يوماً مواليا، ويوماً ثالثاً. وصلتْ حافلة أولى وثانية، ولا أثر ظهر للعريس يْكِنْ.

اختفى يْكِنْ كأنّه لم يَكُنْ يوماً، فلم يبقِ أمام عائلته إلا سؤال السّائق ومساعده لعلّهما يحملان خبراً:

- هل هو شاب طويل أسمر...؟

- نعم... نعم.

- على جبينه أثر جرح قديم.

- نعم... نعم.

- إنه هو إذن...

ساد صمت قصير كسّره مساعد السّائق. لقد رأيت ثلاثة أشخاص عليهم آثار الجدّيّة الزّائدة يُنزلونه من الحافلة قبل أن تنطلق بدقائق.

-هل هم أصدقاؤه؟!

- لا... لا لم يظهر من ملامحه أنّه على سابق معرفة بهم... ظهر لي أنّه كان مجبراً على مرافقتهم.

ساد صمت طويل هذه المرّة. أعقبه صمت أطول، لا كلام بعده، وهو ما حَدَا بالسّائق ومساعده إلى الانصراف، وعلى وجهيهما علامات الأسى والحزن. لم يبرح أبو يْكِنْ مكانه، فلم تكن قدماه تقويان على الحركة، كأنّه تجمّد في مكانه. بعدها بقليل عاد إليه مساعد السّائق، وقال له:

- من فضلك، يقول لك السّائق، ألا تحدّث أيّ واحد بفحوى محادثتنا... فهو لا يريد المشاكل مع أحد، كما لا يريد أن يورّطه أحدٌ في أمر ما.

عاد أب «يْكِنْ» إلى البيت. لم يَلِجْه. جلسَ على المصطبة قرب الباب. وسلّم روحه لباريها. أمّا عائلة العروس فغادرت القرية، دون أن تحضر جنازة الرّجل في ظُهْر اليوم الموالي. كان «يْكِنْ» نديرَ شؤم على الجميع، وجالباً الشّرّ للكلّ. بقيَ حالُ العروس معلّقاً بين السّماء والأرض. الفاتحة بين الأبوين مقروءة، غير أنّ لا شيء من هناءة الزّواج تذوَّقَته. فقط انتظار وانتظار وموت الفجأة، والرّحيل في غبش الفجر، محمّلة بذنب لم تقترفه، غير أنّ على ألسنة النّاس كلاماً آخر: (قْدَامْهَا قْدَامْ الْخسَارَة)؛ فالزّوجة في دَخيلتهم إمّا أن تحمل الخير لزوجها، أو تحمل الشّرّ له.

❖ ❖ ❖

في البداية أحسّ يْكِن بيننا بنوع من الغربة، تماماً كما أحسسنا نحن بالاغتراب عن بعضنا البعض، فاللّهجات المغربيّة لم تكن

متقاربة، وكانت عديد الكلمات مجهولة المعنى بالنّسبة لمغاربة المناطق الأخرى. وجد نفسه معزولاً هنا، والهواء الّذي يتنفّسه لا يشبه هواء مدينة الدّار البيضاء، هواءٌ جبليّ نقيّ ينعش رئتيه، ويمنَح لأنفه عذوبة أخرى لم يعهدها. يتحوّل الهواء المستنشق، بالنّسبة له، من هواء للبقاء على قيد الحياة إلى هواء للتّلذذ والانتعاش والشّعور بالرّاحة والسّعادة. قال:

– هذا الهواء يشبه هواء قريتي، لكن به نسائم بحريّة ما. ثمّ أجهش بالبكاء. بكاء متواصل لم نعرف ما نفعل تجاهه. بقينا صامتين، كلّ واحد ينتظر من الآخرين أن يفعلوا شيئاً. بقي الأمر على هذا الحال، الّذي بدَا كأنّنا اتّفقنا عليه بالتّواطؤ. تحوّل بكاؤه إلى ما يشبه النّحيب إلى أن دفن رأسه بين ركبتيه. ولم يرفعه إلا في الصّباح.

– هدّئ من روعك يا يْكِن. لن يصيبنا إلا ما هو مكتوب على اللّوح المسطور.

– ستفرج لا محالة.

– قريباً ستعود إلى عائلتك.

– لا تيأس...

هدّأنا، جميعاً وتباعاً، من روعه بكلمات مُطَمْئِنات. جميعُنا، هذه المرّة أيضاً، كأنّنا اتّفقنا على الأمر. إلا أنّ كلَمات التّوربيّون كانت مختلفة:

– سيطلق سراحنا قريباً. ما في ذلك شكّ... فَهُمْ لا يملكون أيّ دليل ضدّنا، وإلا لكانوا قدّمونا للمحاكمة.

لم تكن كلماته موجّهة إلى يْكِنْ، فحسبُ، بل كانت الجملة موجّهة إلينا كلّنا، بضمير الجمع. كلمات متفائلة جدّاً، أراد

الجميع تصديقها بقوّة، لكن كيف يُصدّقون هذه الجملة دون بقيّة الكلمات الّتي كان التّوربيّون قد نطق بها سابقاً.

تمنّينا لو أنّنا صدّقنا، منذ البداية، كلام التّوربيّون، إذ لكانت جملته الآن قد هدّأت من روع الجميع، وجعلتنا ننام لليال مرتاحي البال، إلى أن يكذِّب الزّمن كلماته أو يُثبتها. إلا أنّه رغم ذلك كنّا كالغرقى الّذين يتشبّثون بقشّة صغيرة، فكانت جملة التّوربيّون قشّتنا، الّتي أمسكنا بها جميعاً طيلة أيام. فكلّ واحد منّا كان يعتبر نفسه بريئاً، لكنْ لسنا نحن من نُصدِر الأحكام.

بقي يْكن لا ينظر إلى عيوننا طيلةَ أيام، إلى أن أكّدنا له أنّنا كلّنا بكَيْنَا في اليوم الأوّل؛ كلّ واحد بطريقته الخاصّة.

(نطفة تكبر في بطن فاطمة وتعطيني الأمل)

مرَّت أسابيع على اختطافنا أو إخفائنا المتعمّد، ونحن قابعون في نفس الحجرة. لم يسألنا أحد أيّ سؤال، كأنّ لا أحد يكترث لوجودنا أصلاً، كأنَّنا بقايا زائدة دوديّة يجب أن تُستأصل فتتحسّن، في الحين، أحوال البلاد، وإلاّ فإنّها لن تزداد إلاّ سوءا.

مرّت شهور بثقل زائد كأنّها أعوام مضاعفة أضعافاً. وخَفَتَ وَهجُ انتظارنا. وانقطع صدى أخبار الخارج، الّذي لم يكن يوجد أصلاً، ولم نعشه هنا إلا كرجع أحداث وأحلام وخواطر.

بين الحين والآخر يأتيني خَاطِر... ربّما يكون عمرُ ابني الآن أيّاماً عديدةً.

حين كنتُ أغمض عيني كنت أرى ابني يمدّ ذراعيه لي. ذراعان

صغيران. يحاول أن يُفلت من قبضة أمّه كي يرتمي عليّ. في نهاية المشهد كانت تظهر أمي، وهي تحتضن الابن كأنّ ذراعيَّ استحالا إلى ذراعيها هي.

أستيقظ، لكنّي لا أريد لعينيَّ أن تنفتحا. أظلّ أغمضهما بشدّة، علّ المشهد يتكرّر فتكون ذراعيّ هما اللّذان يأخذان بذراعي ابني. أطمئن إلى أنّ الأمر نبوءة بعودتي إليه. بعودتي أنا إلى فاطمة وإلى أمي. فكيف يلقى بي هنا، في هذا الممرّ غير المفضي إلى أيّ مكان سوى القبو؟ !

ترى لماذا خمّنتُ، ببداهة، ومنذ اللّيلة التي أخبرتني فيها زوجتي فاطمة بتيقّنها من مسألة الحمل بأنّه ذكر وليس أنثى ؟! ربّما هو إحساس باستمراريّة اسميّة متوهّمة، بنَسْل متوارث للكنية والتّسميّة، هو وَهْمُ الانتماء الممتدّ الّذي يستكين له الإنسان. ماذا سمَّيتِه يا فاطمة؟ هل سمّيته على اسمي بعد أن يئست من وجودي، من بقائي على قيد الحياة؟ هل سمّيته على اسم والدك رحمة الله عليه... كانت تخمينات اليقظة هذه سَلوايَ الّتي أُربِّت بها على الأيّام كي تُسرِّع من إيقاعها الرّتيب والمأزوم.

أتذكّر اللّيلة الّتي أخبرتني فيها بحملك. كانت اللّيلة الخامسة قبل ليلة الاعتقال. صار الاعتقال، رغماً عنّي، وشماً تاريخيّاً في ذاكرتي أُؤرِّخ به للأيام واللّيالي. احتفلنا ليلتَها بالخبر السّعيد. لم نناقش ولم نتكهّن عَلَناً بجنس الجنين أذكرا أم أنثى؟ تحدّثنا عنه كذكر منذ البداية. أنصتُّ إلى ما يعتمل في بطنك من حياة مستقبليّة، على الرّغم من أنّ بطنك لم يبدأ في الانتفاخ. تحدّثت مع ابني قبل أن تُبعث فيه الرّوح. دعوتُه إلى سماع نصائح الأمّ والأب، وإلى أن يكون مؤدّباً، وأن

يدرس بجدّ حتّى يضمن مستقبلاً سعيداً، في بلد كنّا نظنّ أنّه سيتغيّر قريباً نحو الأفضل والأجمل. وأنّ هذا الأفضل لم يكن يفصلنا عنه سوى سنوات قليلة من العمل.

طالتْ سهرتنا وامتدتْ إلى الفجر، إلى أن نمنَا نحن الثّلاثة متعانقِينَ، متشابكي الأحلام.

(خروج بلا صدى)

في الأسابيع الأولى، كان يرحّل أحدنا أو يطلق سراحه، لم نكن ندري! كان هذا يتمّ بشكل مباغت، ودون إعلام أو إخبار مسبق. بشكل فجائيّ، ودون أيّ انتظام، مرّة في الصّباح ومرّة في الزوال ومرّات أخرى في المساء، لكن بنفس الطّريقة والعبارات، تتمّ المناداة على المعنيّ بالأمر، بنفس النّبرة الخالية من أيّ إحساس، والّتي لا تعطي أيّ انطباع، لا بالحزن ولا بالفرح، نبرة لا تشي هل الآتي، بالنّسبة للمعنيّ، خير أم شرّ، فرح أم حزن؟

يُطلب من المنادى عليه بأن يحمل معه بطانيَته وصحنَه القصديري. يسرع إلى جمع البطانية بلا طيّ، ويختار صحنا من بين الصّحون الموضوعة في الزّاوية قرب الباب. لا وقت للوداع سوى ما يُتبادَل من نظرات، إذ الحارس يتقن إعطاء الانطباع بأنّ الأمر على وجه الاستعجال، وكلّ بطء قد يترتب عنه التراجع عن قرار المناداة.

كلّ من خرج من هنا لا نسمع له خبراً فيما بعد... لا خبراً ولا صداه. كأنّه خرج من سيّء إلى أسوأ، وهل هنالك مكان أسوأ من هذا المكان؟! لست أدري، فلم أزر في حياتي أيّ سجن، حتّى سجناً عاديّاً يُسجن فيه المذنبون العاديّون، الّذين

سَرقوا وقتلوا وتشاجَروا؛ هل كنّا مذنبين؟! وأيّ ذنب ارتكبناه غيرَ الحلم؛ هل صارت الأحلام ذنوباً تستحقّ الاختطاف والاعتقال؟!

لقد كان ذنبنا أنّ بعضنا حلم بصوت عالٍ ومسموع، بينما كانَ الكلّ يحلم بصوت داخليّ يكتمه حتّى لا يسمعه أحد، ثمّ يرتجف من الرّعب والهلع ويقول في نفسه: (اللّه يْخَرِّجْ هَاذْ الْحلامَه عَلَى خَيْر.) (عامية)

كان الأصدقاء يعبّرون عن أحلامهم بصوت عال، أمّا أنا فلم أكن إلا مؤنساً ومتواطئاً معهم في أحلامهم، كنتُ أشاركم بالقلب، فقليلاً ما كنت أشاركهم بالكلام الحماسيّ، إذ ما كان يرتفع هذا الأخير في نفوسهم إلا وكنت أستكين إلى صمتٍ داخليٍّ، صمت يقول الكثير من الأشياء ويزيد على كلامهم كلاماً آخر، يطول ويزداد مقتاً للّذين حوّلوا البلاد إلى مستشفى كبير، مليء بالمعطوبين بلا أمل في الشّفاء، سوى أملٍ يخرج من شقاء الواقع.

(سجين النّصف يوم)

غريب أمر هذا المكان. غرابَته كانت لا تتوّقف عن التّصاعد. تزداد يوماً بعد يوم، حتّى أنّنا لم نعرف كيف نُسميه، فندقاً أم معتقلاً أم سجناً احتياطيّاً أم ماذا؟! حرنا، ولم نصل إلى أيّة نتيجة واضحة، ولم نرتح... إلى أينَ يُؤخذ الّذين مرّوا من هنا؟ هل إلى مكان آخر شبيه أم أسوأ أم ماذا؟! أم يُطلق سراحهم، ويعُودون إلى حياتهم الطبيعيّة بجرح في القلب والوجدان، وبدرس من دروس الحياة، يحفظونَه عن ظهر عذاب ومحنة.

بعض من مرّ من هنا لم نعرف له اسماً ولا مزاجاً. واحدٌ سمّيناه سجين النّصف يوم. أتوا به في منتصف اليوم تقريباً، في ساعات بعد الزّوال. ظلّ صامتاً، ونحن كذلك كانت حالتنا معه، قُلنا سيكون أمامنا متّسع من الوقت للتّعارف، تَعارف من أجل تزجيّة الوقت ليس إلا. قُلْنَا، لنتركه، إذن، لصدمته الصّامتة إلى أنْ يتخلّص منها، ويجد هو من تلقاء نفسه الرّغبة في الكلام والحديث، إلا أنّهم وقبل أن ينتصف اللّيل أتوا وأخذوه إلى حيث لا ندري. بَقينا صامتين واجمين. انتظرنا عودته في نفس اللّيلة، ثمّ في الصّباح، إلا أنّه لم يعد، ولم نر أو نسمع له أثراً أو خبراً بعد ذلك.

قال عليّ الخبّاز:

-لم يعد...

- من؟

- سجين النّصف يوم...

هكذا أسماه عليّ الخبّاز، الّذي لم يكن أحد ينافسه في تسمية الأشخاص والأشياء. وهكذا أطلقنا عليه وسجّلناه في لوائح حالة الإقامة بيننا؛ إقامة خفيفة وسريعة، وصامتة. تمنّينا أن يطلق سراحنا مثله، لكنّنا جزمنا بأنّه ربّما لم يكن مثلنا سجيناً، فلم تظهر عليه علامات الذّهول ولا الخوف ولا الجزع. صحيح أنّ نظراته كانت تبدو تائهة متنقّلة بيننا، وفي أرجاء الغرفة، إلا أنّها كانت فارغة من الخوف. شككنا في أمره، ربّما كان جَاسوسا على أحوالنا، وجاء ليقوم بمهمة التّعرف على كيفية محيانا في هذا المكان؛ مَن الزّعيم والقائد، ومن الصّامت ومن المتحدّث؟ وهذه المهمة لا تستغرق أكثر من نصف يوم. لكن لمَ لَمْ يُشرك الحديث معنا حتى يكون

تقريره ذا فائدة أكثر؟! لم لَمْ ينبش قليلاً في أحوال الحاضر ليستطلع رأينا فيه؛ رأي كان سيورطنا لا محالة؟ لكن ربّما لم يفعل ذلك لكوننا لم نكن نتحدّث سوى في أمور عاديّة جدّا. فنحن لم نخض في الشّأن العام. كان كلّ واحد يحكي حكايته الخاصّة بدون أيّة خلفيات.

(عليّ الخبّاز)

بدأ عَلِيّ الخبّاز يطمئن إلينا، هذا ما أحسستُ به. خصوصاً أنّه قد مضى أكثر من أربعة أشهر، ولم يأت مقيم جديد. لقد أصبحنا كأنّنا أكثر من عائلة، عائلة بالإكراه وليس بالاختيار طبعاً. أحسستُ بهذا حينما بدأ يحكي قليلاً عن ماضيه. بدأ يفعل ذلك بنوع من التّحفّظ والرّيبة. وأنا أنصت إليه بكثير من الحيطة. كنتُ أريد أن أطلب منه ألا يفعل ذلك، لكنّني لم أستطع. بقيَت الجملة محبوسة في جوفي، ولم تخرج. هل لشكٍّ اعتراني أم لكوني لا أريد أن أحسّ بأنّي شريك مكان مع شخص له ماض مشابه؟ كأنّني أريد أن أتناسى ماضيَّ أنا أيضاً، الذي لا يتعد حماس المراهقة والشّباب والحلم بغد أفضل، ولا يتجاوز الآن جلسة المقهى اليومية مع رفيقيّ عبد السلام الكرفطي وعبد المنعم التازي، المشبعة بالأحلام المشروعة العادية؛ ترى أين أنتما أيّها الرفيقان؟ هل لحقكما مثل ما أنا فيه أم أفظع؟

كيف أُزيل ماضيّ هذا من ذاكرة الآخرين إن لم أستطع أن أتخلّص أنا منه، وأمحيه من ذاكرتي؟! هل ماضيّ هو الّذي قادني إلى هنا أم أمر آخر أجهله؟!

استطرد عليّ الخبّاز بعد تنهيدةٍ طويلة. خلتُ أنّ لا أحد

يستطيع أن يوقفه بعدها: (كنتُ أدرس حينئذ بمؤسسة جابر بن حيان، طالباً بالسلك الثّانوي، ومقيماً في الحيّ الداخليّ الملاصق للثّانوية، ثانويّة مخصّصة للذّكور فقط. ندرس بها نحن أبناء القرى القريبة من مدينتيْ العرائش والقصر الكبير.

كانت الاعتداءات على الفلسطينيين متواصلة، تزداد حدّة في كلّ مرّة. مقابل رصاص حيّ حجارَة وهتافات ومسيرات. كانت أصوات الإذاعات العربيّة تنقل تلك الأحداث بنوع من التّحميس. الكلمات رنّانة تأتي مهيّجة للأحاسيس والمشاعر.

صارت شعلة الحماس والتّهييج تزيد يوماً بعد يوم. تكبر ككرة من اللّهب، إلى أن انفجرت في الشّارع العامّ.

خرجنا في تظاهرة أمام بناية إدارة التّعليم في «شارع الزّرقطوني». رفعنا شعارات ترتجف لها أفئدة العدوّ: فلسطين عربية. ليسقط الكيان الصّهيوني... وغيرها من الشّعارات. وما إن أفرغنا جوفنا من الكلمات وأطفأنا في دواخلنا كتلة اللّهب، التّي لم تحرق أحداً غيرنا، حتّى خرج العَيّاشِيُّ، الطالب في السّنة الأخيرة، من بين الجموع، وصدح بصوت عالٍ: (ليسقط مدير الحيّ المدرسيّ.)

تعالت الأصوات بعدَهُ مردّدة نفس الجملة، كأنّها النّار الّتي لم تكن تَحتاج إلا إلى شرارة صغيرة.

وجد العيّاشيّ الفرصةَ مواتية ليلقي خطابا: (آالرّفاق لنقاطع وجبات مطعم الحيّ تضامناً مع فلسطين...)

ظهرت كلمة فلسطين، هنا، كنشاز في الشّعار، وظهرت أنّها مقحمة في القضيّة. تعالت أصوات مؤيّدة بالهتاف بحياة العيّاشيّ، وبسقوط طغاة العالم والظّالمين. كادت القضيّة

تتحوّل إلى مقاطعة أكل المطعم المدرسيّ، إلى أن تدخّلتُ بصوتي المبحوح: (أيها الرّفاق، كيف سنحرّر فلسطين ونحن جوعى، متعبون ومنهكون؟!)

ساد صمت ثقيل وبعدها أعقبته ضحكات مجلجلة وتصفيقات وصفير. فواصلتُ: (نحتاج إلى الأكل كي نصمد، وكي نحيا وكي نتقوى وكي نحرّر فلسطين... نحن هنا لسنا من أجل مقاطعة الأكل، بل من أجل مقاطعة العدوّ الصّهيوني.) ارتفعتْ هتافات التّأييد، وسِرْنا في مسيرة واحدة نحو مطعم الحيّ. كم كان الغذاء لذيذاً وذا طعم شهيّ! كان كغنيمة، بعد أن كاد العياشيّ أن يجوّعنا من أجل لا شيء، هو الّذي لديه عمّ يقطن بالمدينة القديمة ويمكنه أن يلوذ بمطبخه.

لم أدرِ كيف فعلتُ هذا الأمر، وكيف تجرّأتُ أن أذهب عكس تيّار الهتافات المؤيّدة لصوت العيّاشيّ النّافذ؟ حتّى أصدقائي بَقَوا مستغربين، لكنّني صرتُ بعدها رمزاً نضاليّا في الحيّ المدرسيّ، وشخصاً معروفاً فيه. وصرتُ في عيونهم بطلاً أذهبتُ عنهم شبح الجوع. ومنذ تلك الخطبة المرافعة بدأت حكايتي مع النّضال، دون سابق إعداد ولا استعداد، فقط غريزة البقاء واستخدام العقل هي من قادتني إلى ذلك.

(عليّ الخبّاز مرّة أخرى)

مع مرور الوقت بدأ عليّ الخبّاز يظهر أقوانا وأقدَرنا على فهم أمورِ ما نحن فيه، في هذا السّجن. هل لكونه هو أقدمنا في هذا المكان؟!

عليّ الخبّاز رجلٌ هادئ. ابن مدينة صغيرة، مدينة القصر

الكبير. لم يختطَف من أمام منزله، ولم يختطف في جنح الظّلام، وإنّما اختطف في السّاعات الأولى من الصّبح. كان يعمل في مدينة وزان، فيضطر إلى الاستيقاظ الباكر وركوب الحافلة ليكون في السّاعة الثّامنة والنّصف أمام باب إدارة النّقل. اختطفوه، بعد أن أوهموه أنّهم سيحملونه إلى وزان معهم بعد أن توقّفوا بسيّارتهم أمامه، وطلبوا منه أن يتركهم يربحون صدقة خدمتِه ونقلِه إلى وزان، حيث هم ذاهبون أيضاً. ركب معهم بصدر رحب، شاكراً إيّاهم على حسن صنيعهم، وأن اللّه سيكتب هذا العمل في ميزان حسناتهم.

لم يكن يدري أنّ مصيره سينتهي في هذا المكان، وأنّ عائلته ستظلّ تبحث عنه مدّة شهور دون جدوى. وأنّها طيلة مدّة طويلة ستظل على لسان أفرادها جملة واحدة: (خرج صباحاً إلى العمل، ولم يظهر له بعدها أثر).

لم يكن عليّ الخبّاز عضواً نشيطاً في الحزب بقدر ما كانت قوّته في النّقابة. يفضح الفساد، ويناضل ضدّ المستخدمين الفاسدين المرتَشين. وفي الوقت نفسه يدافع عن حقوقهم في عيش كريم وأجواء عمل مناسبة ونظيفة، وهذا طبعاً لم يكن يناسب عدداً قليلاً من الموظّفين الّذين ينتعشون في أجواء الفساد. كانوا يكيدون له المكائد وينصبون له الفخاخ تلو الفخاخ، إلى أن يئسوا، فالرّجل يحصل دائماً على أغلبيّة الأصوات خلال انتخابات الموظّفين، بفضل التحام الشّرفاء حوله، على الرّغم من محاولات التّزوير المباشر أو غير المباشر بترهيب الموظّفين وترغيبهم.

كان عليّ الخبّاز من النّوع الهادئ غير المتسرّع، لا في الكلام ولا في إطلاق الأحكام، خاصّة إذا كان الموضوع جدّيّاً ويحتاج

إلى رويّة. ربّما خبرته النّقابيّة هي ما جعلته طويل النّفس في التّعامل مع الأمور، سواء البسيطة منها أو المعقّدة قليلاً. وإضافة إلى هذا كانت له ميزة حكي الحكايات وتسمية الأشخاص؛ كانت حكاياته مغرقة في الإيحاء ومليئة بالدّلالات والعِبَر، ولم يكن يسرد لنا حكاياته بناء على طلب مسبق، بل كان يجد لها الوقت المناسب، حين يعمّ الصّمت، أو يستشعر حالة من الكدر والسّأم تغشى المكان؛ حكايات كان لها في بعض الأحيان علاقة بالنّضال وما نعيشه من مآسٍ.

يعمّ الظّلام المكان فيشرع عليّ الخبّاز في الحكي، ثم يتوقّف دون سبب واضح. أحياناً يبدأ في الحكي ثمّ يتوقّف لدقائق قد تطول لأنصاف ساعات، ثم يستأنف كأنّه لم يتوقّف. يستأنف دون تذكيرنا بما مضى: (... عرف الجميع أنّ الشابّ اختطف في ليلة زفافه انتقاماً من والده الّذي كان ناشطاً في صفوف اليَسار. كان الشابّ من عائلة تحيا بالنّضال، مهووسة بالدّفاع عن المستضعفين في المدينة السّاكنة على سفح الأطلس الصّغير، وكانت الأجهزة تعرف أنّ اعتقال الأب قد يقود المدينة إلى لحظات هيجان غير مسبوقة، لا يمكن أن يتكهّن أحد بنهايتها، فالأبناء لن يصمتوا، وسيشعلون المدينة الصغيرة المكلومة منذ سنين، ثم إنّ عُودَ ثقاب واحداً كاف، وأقلّ شيء من الممكن أن يفعلوه هو أن يدخلوا في اعتصامٍ مفتوح أمام مفوضيّة الشّرطة. ثمّ إنّ صلابة الرّجل الأب لم يكن من الممكن النّيل منها عن طريق اختطافه... وربّما تواجده أفضل من اختفائه، على الأقلّ، فَخَوْفُه على أبنائه يُلجمهم قليلاً. ولهذا فكّروا أن يوجعوه، أن يكسّروا اليدَ الّتي يستعين بها، والعينَ الّتي يرى بها المستقبل، والقلب الذي ينبض بالكرامة والعزة. فكّروا في الزّمن المناسب، في الوقت الأكثر إيلاماً،

ولكنّ في وقت من الممكن أن يثير الشّك، ويملأ الجوّ بالرّهبة والظّنون. سعوا إلى أن يخلقوا جوّاً من عدم الوضوح، بجعل اختفاء الشابّ حدثاً شخصيّاً أكثر منه حدثاً عامّاً. زرعوا النّميمة لتنمو ولتتكاثر ولتنبت لها الأيدي والأرجل والعيون، وليس هناك جوّ أنسب لهذا وأخصب سوى جوّ الفرح. لم يكن هنالك وقت أفضل لتدبير اختفائه أفضل من ليلة دُخْلَته.

خُلقَ الحزن في خضم الفرح، واستولد الحزن من فجوات الفرح، والأفظع من هذا انتهكت كرامة الرّجل وأُهينَ خارج أرض المعركة الحقيقيّة؛ هل كان لهذه المعركة أرضٌ واضحة؟!

كثيراً ما كان عليّ الخبّاز، يحكي حكاية، وقبل أن يتمّها يبدأ حكاية أخرى، فيحكي قليلاً من هذه، وقليلاً من تلك، دون تنبيهنا إلى أنّه يحكي الأولى أو يحكي الحكاية الثّانية. وخاصّة إن كانتَا حكايتيْن إحداهما عن النّضال الحزين والأخرى عن الحياة الطريفة: (تزوّج أحد الزّملاء أمازيغيّة جميلة (ينظر الجميع إلى يْكن ليروا أثرَ الجملة عليه). أتى بها وهي في ريعان شبابها إلى المدينة، إلا أنّها تمنّعت عليه بعد مرور أيام قصيرة من الزّواج، جرّب معها جميع الوسائل لمراضاتها والتّقرّب إليها لكن دون جدوى. إلا أنّه لم يجد قدرة على تطليقها، وهي الجميلة الفاتنة التي تُشرح قلب النّاظر إليها. على الأقلّ كان يكتفي بتمتيع نفسه بالنّظر والتّمني، خاصّة أنّه لم يعرف سبباً لتمنّعها عليه. فهي لم تخبره بالأمر. بقيت ملتزمة بجميع واجباتها والتزاماتها تجاه البيت، تعدّ له أشهى الطعام، وتعتني بالبيت اعتناء كبيراً دون تأفّف. فلمْ تمتنع عن القيام بأمر من أمور البيت، إلا أنها تمنّعت عليه في الفراش. وعزّ عليه أن يطلقها ويذهب سرّها معها، ثمّ إنّها لم تطلب في يوم ما الطّلاق.

استمرّ الوضع هكذا سنوات، حتّى وُجِد الرّجل يتحرّش بسيّدة ذات جاه وسلطة في المدينة. تحرّش بها دون أن يكون على علم بمكانتها. حاول أن يمارس عليها سلطته، في الزّقاق، بعد أن فشل في فرضها على زوجته. فاعترف بحقيقة وضعه العائليّ حين فاجأه أحد رجال الشّرطة، بعد أن عرف أنّه متزوّج:

-كيف تفعل هذا وأنت متزوج؟! أيْ: وأنت مكتف... على الأقلّ قد نتفهّم وضعيّة الأعزب. ونجد له بعض العذر أمّا أنت؟!

فأجاب: أنا متزوج ظاهراً... أمّا باطناً، فليس لي من الزّواج إلا النّظر إلى وجهها الجميل. مُتعه لم أذُقها. شرح له كلّ شيء عسى أن يجد له العذر.

(أوقات الفراغ)

على الرّغم من أنّ أوقاتنا كلّها كانت أوقات فراغ تتشابه، إلا أنّني كنت أصرّ، بيني وبين نفسي، على تسمية أوقاتٍ بهذا المسمّى. كنتُ أقود فيها رفاقي وأستدرجهم إلى ملءِ الفراغ بأشياء نتشارك التّفكير بها. أوقات الفراغ هي أوقات نتشارك فيها شيئا... في كثير من الأحيان أدعوهم إلى تذكّر من كان هنا ولم يعد، أو من عبَر من هذا المكان سريعاً... من كان خفيف الظّلّ والمقام، ومن كان عكس هذا، نُدلي بانطباعاتنا حولهم، ونحسب عددهم.

كان الأمر أشبَه باستراحة ما. كنّا نختلف في عددهم. غير أنّنا في الأخير كنّا نتّفق قليلاً في انطباعاتنا حولهم... كنّا نروم الاتّفاق ليس إلا، إذ أنّنا لم نكن في حاجة إلى خلافٍ في وقت فراغٍ.

اخترعتُ تسمية «أوقات الفراغ في السّجن»، وكان عليّ الخبّاز، بطلب منّي، هو من تكفّل بإخبار وإقناع الباقين بهذا الأمر؛ وكيفَ أُقْنعُهم أنا وحدي بسرعة وسهولة، وأنا قد أمضيتُ مع نفسي ساعات وساعات من التّفكير حتّى أقتنع بهذا الأمر؟! كيف تُقنِع سجيناً كلّ ساعات يومه أوقات فراغ بأن يخصّص، ويسمي ساعات من يومه، بهذا الاسم؟! لكن، كان لابدّ من هذا الأمر، ومن هذه المغامرة حتّى لو نعتني الآخرون بالجنون.

أن ينعتني الآخرون بهذا الوصف خير من أن أجنّ دون أن يعرفوا بذلك. وفي الحقيقة أنّ إرهاصات هذا الأمر كانت قد بدأت تظهر، فأخافتني كثيرا ... ففي كثيرٍ من الأحيان، بمضي يومي، أذرع الطّريق من المقهى إلى البيتِ، جيئةً وذهاباً، دون دخول إلى أحدهما. وفي أحيان أخرى يضاف إلى المكانيْن مكان آخر هو الثّانوية حيث كنتُ أشتغل. لا أتعدى بابها هي أيضا. أمضي اليوم بدون استراحة ولا راحة في أيّ مكان. متنقّلاً بين الأمكنة كالتّائه الباحث بدون جدوى عن مستقرّ. أمضيتُ أيّاماً على هذا المنوال وأنا ممدّد في ركن من الحجرة. حاولتُ أن أطرد هذا المتخيّل الواقع الرّهيب الجاثم على دماغي بأن انتقلتُ إلى ركنٍ آخر، ثم إلى ركنُ مغاير، إلى أن وقفتُ في النّهاية لبضع دقائَق في وسط الحجرة، غير أنّ عقلي بقيَ يسير في نفس المشوار.

أخبرتُ التّوربيّون بأن ننزل قليلاً إلى القبو. نزلنا، إلا أنّ نفسَ المسار بقيَ مرسوماً في عقلي، لم تبرحه قدماي. حينئذ انتبه التّوربيّون إلى حالي:

– ماذا بك؟!

– لا شيء... فقط لم أستطع أن أتوقّف عن السّير منذ أيام.

وما أن أتممتُ الجملة حتّى أنزل التّوربيّون عينيه إلى قدميّ. وقال:

– ألهذا أرى أنّ قدميْك لا تلمسان الأرض!؟

أنزلتُ عينيّ إلى الأسفل، إلى رجليّ. نظرتُ إليهما. للحظة شككتُ فيما قاله التّوربيّون. ظننتُ أنّه ربّما يقول الصّدق. كان الظّلام لا يسمح بالرّؤية، لذلك لم أر قدميّ، فحرّكتهما وجرجرتهما على أرضيّة القبو. هنا انفجر التّوربيّون بالضّحك، مكرّراً كفواصل: (أصدّقتَ ما قلتُه؟!... أصدّقتَ ما قلتُه؟!)

لم يتم التّوربيّون ضَحِكَه حتّى انفجرتُ أنا ضاحكاً. ضحكُ هستيريّ لم أدرِ مبعثَه، ولم أجربْه منذ جيء بي إلى هنا.

بعد أن توقّفتُ عن الضّحك، توقفتُ عن السّير.

قلتُ للتّربيّون: (لابدّ أن تفكّر لنا في كيفية تزجية أوقات الفراغ)، ولإقناعه أكثر قلتُ له:

– منذ مدّة طويلة، لم يغيّروا أيّ واحد منّا. لم يأتوا بضيف جديدٍ كما لم يأخذوا مقيماً قديماً.

– هل بدأتَ تشعر بالملل، هل اعتراكَ اليأس؟!

– أخشى أنّ إقامتنا ستطول هنا.

– هل تظنّ أنّهم نسونا هنا؟!

لم أجب التّوربيّون خشيَةَ أن تطول أسئلته، فتُفضي بي إلى تفكيرٍ لن أخرج منه سالماً. كما أنّني لم أتعوّد أن أكون في وضعيَّة الباحث عن إجابات تخمينيّة لا تسمن ولا تغني من فرح.

انتظر التّوربيّون الجواب إلى أن عَدَّ الصّمت جواباً بالإيجاب.

-ربّما يكون جوابك صحيحاً، لكن ما قولك في الحارس الّذي يأتي لنا بالطّعام، ويمدّ لنا خرطوم الماء كلّ صباح من أجل ملء الأَسْطَال الثّلاثة، ومن أجل تنظيف المرحاض. وما رأيك في الطّعام الّذي لم ينقص؟ هذا دليل واضح أن الميزانيّة المخصّصة لإطعامنا ما زالت تُصرَف.

لم يكن ينقص التّوربيّون سوى بذلة المحامي كي يُقنعني أنّني أمام محام يرافع في قضية من القَضايا.

- وما دمتَ تعلم كلّ هذا لماذا تطرح عليّ الأسئلة، وتورّطني في التّفكير، وأنا أرغب في أن أُريح الذّهن أكثر من رغبتي في تشغيله، بعد أن دار دورات كثيرة في الفراغ؟!

(الأحلام)

اللّيلة حلمتُ بأنّ رجلاً ضخماً سيأتي ويطير بنا إلى خارج هذا المكان. سيحملنَا بمنقاره الرّقيق... هنا انفجرنا كلّنا ضحكاً. ضحكنا مثلما لم نضحك منذ زمان طويل؛ كيف برَجُل ضخم له منقار؟! هل أصبح التّوربيّون يهذي؟! هل أصبحت أحلامُه تبعث على الضّحك والسّخريّة لا أكثر. ضحكنا ثم صمتنا. لا أحد تكلّم. فلا أحد كان له ما يقوله غير الضّحك. ظننّا أنّ التّوربيون أيضاً لن يقول شيئاً ولن يفعل أيّ شيء. غير أنّه وطيلة فترة ضحكنا، كان مشدوهاً لا يدري ما يفعل تماماً، كأنّه لم يدر ماذا قال وما كان محلّ استغرابنا. وما أن انقطع ضحكنا حتى انفجر هو في ضحك عالٍ مسترسلٍ بدا كأنّه بلا نهاية، حتّى خفنا عليه وعلى عقله مِن الجنون،

وخفنا على أنفسنا أكثر... ماذا لو أضحى التّوربيّون الضّخم مجنوناً؟ كيف سنتعايش مع مجنون في حجرتنا هاته؟! إلا أنّ التّوربيّون توقّف عن ضحكه الهستيريّ مثلما بدأه. ولم يتركنا نأخذ أنفاسنا، الّتي حبسناها لنستطلع أمره. قال: (سيأتي ذاك الرجل وسترون، سيكون له منقار رقيق.)

أمام جدّيّة التّوربيّون لم يستطع أحد منّا أن يقول شيئاً، أو حتّى أن يضحك، فكلّ واحد منّا كَتَم، ما أمكنَه، ضحكتَه.

بعد مدّة قصيرة من كلام التّوربيّون سنسمع أصوات دجاج وديكة قريبة. يتعالى صياحها. لابدّ أنّ الجميع ربط بين ما حدث وبين حلم التّربيّون السّابق. لكن لا أحد كان يملك جرأة العودة إلى الموضوع.

لم يكن أيّ واحد منّا على درايَة يقينيّة بما في تفسير ابن سرين للأحلام ولا في غيره من كتب الأحلام الأخرى، ولو كان الأمر كما سلف لكنّا قد خلقنا مساحات مهمّة مع التّوربيّون، مساحات نقاش مَرِحَة على الأرجح. لكنّ أحلام التّوربيّون كانت أحلاماً مكتملَة لا تحمل ملامح الكلمات المتقاطعة، أو التّفسيرات المحدّدة بدقّة. كانت متداخلة جدّا، كأنّها حكاية تمّ التّفكير بها بعناية، وتمّ تشذيبها.

كان النّهار هنا يشبه ليلاً آخر. ليلاً بكلّ ما في الكلمة من معنى الصّمت والرّهبة والسّكون. سكونٌ جاثم لا يبرح مكانه. وليلٌ لا ينقضي... أسترجع الآن الأشعارَ القديمة، بل هي تعيد استرجاعي مرّة ومرّات: ألا أيّها اللّيل الطّويل ألا انجلي... بصبح وما الإصباح منك بأمثَل. أعيشُ ما قاله الشّاعر منذ مآت السّنين. نفسُ الإحساس. نَفسُ المشاعر. كأنّ الإنسانَ لم تتغيّر معاناته ولا مُكابدته للمشاقّ المتربّصة به، مهما اختلفت

تجلّيات وجوده على هذه الأرض. كأنّ الإنسان لم يتغيّر أبداً. يُسبّب لبعضه البعض الآلام المبرحة بقصدٍ وبدونه.

(عليّ الخبّاز... محكيّات النّضال)

((كان بَامْبَارِكْ رجلاً صموتاً جدّاً. لا يتحدّث كثيراً، ولا يتدخّل إلا عند الضّرورة، عندما يسأله أحد، أو يطلب أحد ما رأيك في أمر شخصيّ على الأغلب، أو في حوار ثنائيّ على الهامش، لكنّه كان ذاكرة الحزب والمقرّ، فكثيراً ما كان أحد يخاطبه أثناء لقاء ما: (ألم يكن ذلك في لقاء يوم كذا؟). (ألم يكن نجيبٌ حاضراً معنا في ذلك اللّقاء؟) (أليس في لقاء يوم كذا ناقشنا القضيّة الفلانيّة؟). كان يجيب عن الأسئلة دون تردّد وبدقّة متناهية، وبيَقين مطلق، فقد كان ذاكرة تخزّن الأحداث الّتي تجري في المقرّ. ذاكرة لا تعرف النّسيان ولا السّهو. كثيراً ما كان يحكي لي عن الأحداث المهمّة الّتي عرفها المقرّ وعن السّجالات والنّقاشات السّاخنة الّتي تحتدم في السّنوات الأولى من تأسيس الحزب والنقابة، وعن الصّراعات بين التّوجّهات المختلفة وحول الحسم في الاختيارات، والّتي كان الصّراع يشتعل بين الأطراف في الحزب. لم يكن يُبدي رأياً شخصيّاً في أيّ موضوع. ينقل الأشياء بحَرفيّة، دون زيادات، ودون أن يقول رأيه فيها. فقد كان واقعيّا مع نفسه. كان يقول بين اليوم والآخر: (لم أتلق تعليماً عالياً... بالكاد تخطّيتُ سنوات الابتدائي، ووجدتُ نفسي مضطراً إلى الخروج لتعلّم صنعة ما، أساعد بها أسرتي على تحمّل شظف العيش). وبعد فترة صمت: (أعرف شيئاً واحداً هو أنّنا مظلومون في هذه البلاد، وأن خيراتها لا تُقتسم، بعدل، بين الجميع).

اشتغل بَامْبَارَكْ مدّة عشرين سنة في شركة خاصّة بصنع صناديق السّمك والخضر، إلى أن توقّفت وأعلنت إفلاسها بسبب ضُعف الإقبال على الصّناديق الخشبيّة، واستبدالها من طرف أصحاب السّفن البحريّة والمزارع والمصانع الفلاحيّة الكبرى بصناديق بلاستيكيّة صلبة مستوردة تدوم أطول.

خاض الحزب والنّقابة معركة نضاليّة طويلة النّفس من أجل أن يعوَّضَ هؤلاء المستخدمون تعويضاً مستحقّاً، أو تغيّرَ الشّركة نشاطها وتستقدم، هي أيضا، آلات لصنع الصّناديق البلاستيكيّة. إلا أنّ لا شيء من هذا تحقّق. وَعَدَت الشّركة بتعويض المستخدمين على دفعات، حالما تتحسّنَ أمورها بالتّدريج، على أساس ألا يتمّ رفع دعاوى قضائيّة حتّى لا يخسر مالكو الشّركة القطعة الأرضيّة الّتي هي مقامة عليها، والّتي أصبحت تقريباً في وسط المدينة، بعدَ أن امتدّ العمران، وتطاول البنيان حولها. لم يكن أمامهم سوى الانتظار ثم الانتظار، إلى أن وجدوا عمارات تقام أساساتها بعد مدّة قصيرة، وبعد أن تمّ تعويض القليلين، بقي الكثيرون ينتظرون إلى الآن. وبَامْبَارِكْ واحد منهم.

تضامناً معه، هو الذي ضحّى من أجل النّقابة واستمات في الدّفاع عن حقوق العمّال، طُلبَ منه أن يشتغل براتب نضاليّ حارساً للمقرّ، وساهراً على إعداد كؤوس الشّاي أثناء اللّقاءات والاجتماعات، وكلّما اجتمع أكثر من ثلاثة مناضلين في المقرّ، وهو نصاب قانونيّ يستوجب إعداد إبريق الشّاي، الذي كان المناضلون يتشاركون في جمع ثمن لوازم إعداده من شاي وسكّر وملء أنبوبة الغاز الصّغيرة كلّما فرغت.

والحقيقة أنّ بَامْبَارِكْ كان على قدر كبير من تحمّل المسؤوليّة،

فـأنْ تَقْبَـلَ بـأن تكـون حـارس المقـرّ، كان يقابلـه لامحالـة التّعـرض لضغوطـات عـدّة مـن طـرف رجـال السّـلطة بمختلـف اختصاصاتهـم ومراتبهـم. وهـدف الضغوطـات واضـح، وهـو أن يعمـل الحـارس مخبـراً للسّـلطة إيّاهـا. ناقـلاً إليهـا كلّ مـا يحـدث فـي المقـرّ، وكلّ مـا يجـري هنالـك مـن نقاشـات وسـجالات، وناقـلاً تفاصيـل ملفّـات المناضلـين. كان بَامْبَـارِكْ بحسّـه النّضالـيّ واعيـاً بهـذا الأمـر منـذ البدايـة، فقـال لمـن خاطبـه، أولاً، فـي موضـوع العمـل: (أنَـا قـادر علـى هـذه المسـؤولّية، ولـن يأخـذوا منّـي شـيئاً، لـن أمكّنهـم مـن أيّـة معلومـة.)

هكـذا كان بَامْبَـارِكْ حـارس المقـرّ الأمـين، وحـارس أسـرارنا المؤتمـن، الّـذي لـم أشـك فيـه علـى الإطـلاق، علـى الرّغـم مـن أنّ بعـض الرّفـاق المتشـكّكين حاولـوا أن يقنعونـا بـأن نقـوم باختبـار لـه. إلا أنّنـا رفضنـا. اختبـروه هـم، دون معرفتنـا، فجـاءت النّتيجـة لصالحـه بـلا أدنـى شـك.)

أحيانـاً كانـت تختلـط حكايـات علـيّ الخبّـاز بأحـلام التّوربيّـون، فتعطيـان طعمـاً خاصّـاً لحياتنـا هنـا. لا نـدري مـاذا كان بإمكاننـا أن نفعـل بِدُونهمـا؟! كيـف كنّـا سـنقتل الوقـت؟! إلا أنّنـي خمّنـتُ أنّ لا الزّمـانَ ولا المـكان يقبـلان الفـراغ، وأنّـه كانـت سـتظهر أشـياء أخـرى تسلّينا وتجعـل الوقـت يمضـي، ولـو أبطـأ.

(صباحُ البخار)

كان صباحـاً مختلفـاً عـن الصّباحـات الأخـرى، صباحـاً مختلفـاً جـدّاً. أحسسـنا فيـه بطعـم الاهتمـام؛ دخلـوا علينـا. كانـوا ثلاثـة. لـم نـر الحـرّاس قبـل هـذا الوقـت مجتمعـين، كنّـا نسـمعهم ونراهـم فـرادى فقـط، فظننّـا لوقـت طويـل أنّهـم يتناوبـون علـى العمـل، وأنّ

الحراسة، في الأوقات الأخرى، لا يقوم بها إلا حارس واحد.

حين رأيناهم مجتمعين، ثلاثتهم، ويفتحون علينا الباب، قال كلّ واحد في سَريرَته بأنّ الأمر جللٌ وعظيمٌ حتّى يتعاونوا عليه. لم ننتبه إلى البراميل البلاستيكيّة الصّغيرة الّتي فوق ظهورهم إلا بعد أن أخرجوا خراطيمَ صغيرة من جوانبها، وشرعوا في وقت واحد في رشّنا ببخار.

كان بعضنا جالساً، والبعض الآخر ممدّداً على جَنبه؛ فأغلبُنا لم يعد ينام على ظهره، لأنّ ارتطام عيوننا بالسّقف يجعلنا نحسّ بالسّوداويّة المطلقة. وقفنا جميعاً. أدرتُ للحرّاس ظهري بعد أن تسرّب البخار إلى عينيّ وجعلني أحكّهما حكّاً كثيراً. فَعَلَ الجميع نفس فِعْلي، ربّما بطريقة لاإراديّة لحماية وجهه من بخار يَجهَل ماهيَتَه.

شيئاً فشيئاً بدأت الغرفة تعبق برائحة المبيد. لقد تمّ رشّنا بمبيد للحشرات. فعلوا ذلك دون إخبار ولا إعلام، فهم في الأول والأخير يعرفون مصلحتنا أكثر منّا! بعدها خرجوا وأغلقوا الباب دون كلام؛ وكيف يتكلّمون وهم لم يفعلوا ذلك حتّى عندما كانت أفواههم بدون كمّامات.

عرفنا، بهذا، أن الأيامَ التي ستأتي سترتفع الحرارة فيها. إلا أنّ عدمَ معرفتنا طبيعة المكان الّذي نوجد فيه زاد الأمر غموضاً. هل هم يهتمون بأمرنا إلى درجة خوفهم علينا من قرصات صغيرة للحشرات؛ هل الأمراض الجلديّة تشكّل بالنّسبة لهم همّاً كبيراً حتّى يخافوا علينا منها. فقد ظننّا أنّ همّهم الوحيد هو أن نبقَ على قيد الحياة إلى أن يتمّ تصديرنا إلى مكان آخر.

(موسى أزيار)

كان موسى أزْيَار من الرّفاق. من سُوسَ العالمة كما كانت توصف دائماً. لكنّها سوس العاملة والكادحة بصمت أيضاً. موسى ابنُها. رجل خجول، صموت. لكنّ فكره ثاقب، وكلماته، إنْ خَرَجتْ، انطلقت بسرعة كالرّصاصة النّافذة، الّتي لا تحتاج إلى تأويل ولا إلى شرح أو حجاج. كلمات مقنعة في حدّ ذاتها.

فتح موسى أزيار أعيننا على أشياء كثيرة. وعلّمنا كيف نقتل اليأس في نفوسنا قبل أن يستحوذ هو علينا، ويُردينا صرعى، أو على الأقلّ يتركنا أجساداً بلا عقول. طلب منّا موسى، بدايةً، بأن نؤمن بأنّ سراحنا سيتحقّق لا محالة:

– لا بدّ أن يُطلقوا سراحنا مهما طال الوقت.

– ومن أين لك هذا اليقين؟! أجَبْنَا سائلين في نفس الوقت، وبصوت واحد.

– وماذا سيفعلون بنا؟!

– لا أدري... وما الّذي جعلهم يحتجزوننا هنا؟!

– يبدو لي أن الاحتجاز كان بطريقة عشوائيّة، ومهما طال الزّمن سيتأكّدون بأنّهم لم يستفيدوا شيئاً باحتجازنا هنا.

– بل قل ماذا سيخسرون إن نسونا هنا!

– سيخسرون الكثير... إذ لا بدّ أنّ عائلة كلّ واحد منّا تبحث الآن، وتطرق الأبواب وتفتح نوافذ من أجل معرفة مكان تواجدنا.

كانت الجملة الأخيرة كافية ليُختم الموضوع، إذ كلّ واحد منّا غرق في تذكّره لأسرته.

تذكّرتك يا فاطمة أولا، ثم بعدك أمي وأفراد أسرتي. وهكذا عرفت مقدار حبّي لك وتشبّتي بك حتّى في اللّحظات الحالكة الّتي لا يعرف الإنسان هل سيعيش بعدها أم لا. تمنّيت لحظتها لو كنت مسجوناً في سجن عاديّ. تزورونني ولو ليوم في الأسبوع. أطمئنّ عليك، ولو لساعة من الزّمن. أفضِّل السّجن الآن حتّى لو كنتُ بريئاً لم أقترف ذنباً، على الأقلّ في تلك الحالة سأكون عارفاً مقدار مدّة سجني، وهكذا سأنظّم وقتي وأخلق لنفسي الطّمأنينة المبتغاة.

(واقع لا مفرّ من تسميته)

مع مرور الوقت بدأ شعور قاسٍ يخامرني ويسيطر عليّ. الحياة انتهت بالنّسبة لي هنا، فيَّ هذا الممرّ. البرزخ الطّويل بين حياتين. ترسّخ في ذهني أنّني سأقضي هنا، دون أن يعرف أحد مصيري. ربّما الحياة انتهت أيضاً بالنّسبة للّذين في الخارج. من يدري؟!

ربّما حرب كبيرة نشبت في العالم كلّه، ولم يبق شيء على هذه الأرض. كانت هذه الأفكار تملأ سماء مخيّلتي كغِربان أو كطيورِ بوم سوداء. خشيتُ أن تهاجر هذه الطّيور إلى أذهان الآخرين، ويفقدون الأمل مثلي، فتموت أرواحنا هنا قبل أن تموت أجسادنا.

أتمنى الموت أحياناً، خوفاً من واقع أسوأ منه.

بعد مضيّ كلّ هذه الشّهور، ونحن في نفس المكان، كان لا بدّ من أن نبدأ بتسمية الأشياء بمسمّياتها؛ أصبح هذا المكان سجنَنا.

صرنا نُسمي هذا المكان سجناً. انطلقتْ هذه التّسمية من أفواهنا وأصبحنا ننطقها دون خوف وبكلّ يقين، بعد أن بقيتْ كلّ المدة السّابقة قابعة في نفوسنا. نخشى الجهر بها، وكأن هذا السلوك الأخير سيُصيرّها واقعاً! هو سجن أبديّ؛ ألسنا هنا، محبوسين، منزوعي الحرّيّة، لا حقّ لنا في الحركة والذّهاب أينما نريد. حتّى وإن لم يكن سجناً عاديّا... حتّى وإن كان محطة انتظار لشيء نجهله جميعاً؛ سجناء وحرّاسا أيضا، كما تخيّلت الأمر؟!

❖ ❖ ❖

البعض منّا كان يُصلي. كنّا نفعل ذلك منفردين وليس جماعة. نتكهّن بدخول وقت الصّلاة، إلى أن بدأنا نستعين بخدمات التّوربيّون في هذا الشأن... التّوربيّون لم يكن يصلي، لكنّه لم يتأفّف من تقديم المساعدة في هذا الأمر.

كنّا نصلي أحياناً تباعاً، وفي بعض الأحيان كان يَترك أحدنا وقتاً بين صلاته وصلاة غيره. غير أنّنا جميعاً كنّا نصلّي بالهمس، حتّى الصّلوات الّتي تقتضي الجهر، كنّا نصليها بصوت هامس خفيف. ولم أعرف لماذا؟ ربّما كان هذا حال صلاةِ أوَّلِنا في هذا المكان واستمرينا عليه.

كلّ أوقات الصّلاة كان بإمكان التّوربيّون أن يتكهّن بها إلا صلاة الفجر. فلم يكن بإمكان أحد أن يوقظه ليسأله: هل حان وقتها؟ ربّما التّوربيّون في ذلك الأوان يكون مأخوذاً بحلم من الأحلام، وربّما يفعل ذلك وهو يَسير. ثم إنّه لم يكن أحد منّا مشغولاً جدّاً بأمر هذه الصّلاة النّافلة، ربّما حتّى لا يزعج الآخرين.

كنتُ في كثير من الأحيان، الّتي أحس فيها بلفحات الصّبح،

أو بدخول ضوء الغبش، أردّد أجزاء من الأذكار الّتي حفظتها في صغري، كالصّلاة المشيشيّة والورد النّاصريّ: (يا من إلى رحمته المفر/ ومن إليه يلجأ المضطر. ويا قريب العفو يا مولاه/ ويا مغيث كل من دعاه. بك استغثنا يا مغيث الضعفا/ فحسبنا يا رب أنت وكفى. فلا أجل من عظيم قدرتك/ ولا أعز من عزيز سطوتك. لعز ملكك الملوك تخضع/ تخفض قدر من تشا وترفع. والأمر كله إليك رده/ وبيديك حله وعقده. وقد رفعنا أمرنا إليك/ وقد شكونا ضعفنا عليك. فارحمنا يا من لا يزال عالما/ بضعفنا ولا يزال راحما. انظر إلى ما مسنا من الورى/ فحالنا من بينهم كما ترى. قد قل جمعنا وقل وفرنا/ وانحط ما بين الجموع قدرنا. واستنقصونا عدة وعدة/ واستضعفونا شوكة وشدة. فنحن يا من ملكه لا يسلب/ لذنا بجاهك الذي لا يغلب. عليك يا كهف الضعيف/ إليك يا غوث الفقير نستند نعتمد. أنت الذي ندعو لكشف الغمرات/ أنت الذي نرجو لدفع الحسرات. أنت العناية التي لا نرتجي/ حماية من غير بابها تجي. أنت الذي نسعى بباب فضله/ أكرم من أغنى بفيض نيله. أنت الذي تهدي إذا ضللنا/ أنت الذي تعفو إذا زللنا. وسعت ككل ما خلقت علما/ ورأفة ورحمة وحلما. وليس منا في الوجود أحقر/ ولا لما عندك منا أفقر. عم الورى ولا ينادي/ يا واسع الإحسان يا من خيره غيره. يا منقذ الغرقى ويا حنان/ يا منجي الهلكى ويا منان. ضاق النطاق يا سميع يا مجيب/ عز الدواء يا سيرع يا قريب. وقد مددنا ربنا الأكف/ ومنك ربنا رجونا اللطف. ورضنا بما به رضيت/ فألطف بنا فيما به قضيت. باليسر وامددنا بريح النصر/ وأبدل اللهم حال العسر. واجعل لنا على البغاة الغلبة/ واقصر أذى الشر على من طلبه. واقهر

عدانا يا عزيز قهرا/ يفصم حبلهم ويصمي الظهرا. واعكس مرادهم وخيب سعيهم/ واهزم جيوشهم وافسد رأيهم. وعجل اللهم فيهم نقمتك/ فإنهم لا يعجزون قدرتك. يارب يارب بحبل عصمتك/ قد اعتصمنا وبعز نصرتك. ولا تكلنا طرفة إلينا/ فكن لنا ولا تكن علينا. فما أطلقنا قوة للدفع/ ولا استطعنا حيلة للنفع. وما قصدنا غيرك بابك الكريم/ وما رجونا من فضلك العميم. فما رجت من خيرك الظنون/ بنفس ما تقول كن فيكون.)

بينما موسى أزيار يستعدّ لصلاة الصّبح طلب منه التّوربيّون أن يُعلِيَ من صوته، فبدأ يفعل ذلك، وإن بخجلٍ شديد. عرفنا فيما بعد أن ذاكرته لم تعد تحفظ سوى سورٍ قِصار قليلة كان يكررها باطّراد، دون أن يوظّف سوراً أخرى، على الرّغم من أنّ تلاوته لتلك السّور كانت مؤثّرة.

لم يكن يُكِنّ يوماً من المصلّين ولا من السّاجدين، لذلك كان أكثرنا تأثّراً بالأمر، فهو لم يعتد عليه ولم يشاهده ولم يترعرع في أحضانه. الأمر بالنّسبة له كان عبارة عن اكتشاف جديد مُبهِر.

من شدّة اليأس صار بعضنا يفضّل أن ينزل إلى القبو ويجلس. كان التّوربيّون أوّل من قام بهذا الأمر، بعد أن شجعه ارتفاع درجة الحرارة في الحجرة. نزل الأدراج، ونادى على عليّ الخبّاز.

كان القبو يحتاج إلى نظافة، على الأقلّ أن تزال منه بيوت العناكب المنتشرة في كلّ ركن. أزال سترته، وشرع يلوح بها في الأركان وينفضها. كان القبو قطعة من اللّيل، خاصّة في الجوانب البعيدة من الأدراج الّتي كانت تظهر كسماء صغيرة

يأتي منها الضّوء. لكن رغم ذلك أتمّ التّوربيّون مهمته. وصار يدعونا إلى النّزول إلى القبو. صار يدعونا إليه كأنّه يرحّب بنا في بيته. ويبدو أنّ الأمر كان كذلك، إذ لم يكن أيّ واحد منّا يتجرّأ أو يجد الرّغبة في نفسه للنّزول إلى القبو دونَ التّوربيّون.

لم نلاحظ أنّه في القبو كان بإمكاننا أن نتحدّث باطمئنان دون أن نخشى أن يسمعنا أحد. أو على الأقلّ كان بالإمكان أن نبتعد عمّن كنّا نشك، دون يقين، في أمره.

لم تكن حجرتنا مزوّدة بالضّوء، ولم نكن نظنّ أنّها يوماً ستصير كذلك. فقط ضوء اللّه الّذي يشعّ من قلوبنا، فيضيء لَيْلَنا، خاصّة عندنا نكون صامتين واجمين.

(استرجاع الماضي)

حين يعمّ الظّلام يتذكّر الإنسان عائلته كلّها. السّلالة كلّها تجتمع في وقتٍ واحدٍ، كأنّ الأمر يتعلّق بحفلة عائليّة طارئة تتجاوز الأجيالَ والأحقَاب. كأنّ العدم الّذي أتى منه الإنسان يُحفّزه الظّلام على العودة إليه.

تذكرتُ أمّي. حتماً تذكّرناها جميعاً في هذا المكان.

لا شيء يظلُّ راسخاً في الوجدان أكثر من صوت الأمّ، ومن حضورها العاطفيّ والجسديّ الطّاغي والمؤثّر على كلّ أرجاء البيت، وعلى كلّ تضاعيف الحياة منذ النّطفة وحتّى الممات.

كلّ الأمّهات متشابهات في حنانهنّ، وفي الخوف الّذي نراه في أعينهنّ، وفي الإيثار الّذي يطغى على سلوكهنّ. لهذا ذكرياتنا عن الأمّ متشابهة، لكنّها مراوغة متفاوتة في مقدار الافتتان.

تذكّرتُك وخشيتُ بأن يكون اختفائي سبباً في موتك، أو في حدوث مكروه لك. لن أسامح نفسي إن كان هذا ما وقع. لكن أي ذنب لي في هذا المصاب؟ لا حاجة لي للخروج من هنا إن كنت سأجد هذا الواقع الجديد الأليم. لا ألم في الحياة أشدّ من ألم فقدان الأمّ. ولا فقدان أفظع من فقدانها. خاصّة إذا جاء الأمر مأساويّاً، تصرفّت فيه إرادات البشر، رغم أنّه لا إرادة تعلو على إرادة القدر.

الآن عرفتُ معنى كلماتها: (لَيْسَ لَنَا أَحَدٌ). ففي هذه البلاد دائماً يحتاج الإنسان إلى أحد، إلى عكاز، إلى حماية، إلى واسطة، وإلى تدخّل. بلاد لا قيمة للفرد فيها إلا بمقدار ما له فيها من سند.

تذكّرت الجدّة والجدّ. سنوات الطّفولة الأولى أمام «دكّانة» بيت النّار، تحت شجرة التّين العملاقة المعمِّرَة. أتذكّر كسرة الخبز السّاخن بزيت الزّيتون والسّكر. أتذكّر بشهيّة أكبر الخبز السّاخن بالسّمن أو الزّبدة. أتذكّر أطعمة الطّفولة الحلوة كلّها.

أتذكّر كيف كانت جدّتي تقلّبني أثناء الغسل، بعد أن أعود من جولة لعب مع الرّفاق، حيث يتحوّل جسدي إلى كتلة لحميّة مُشبَعة بحبّات الرّمل.

تُجهد الجدّة نفسها في تقليبي، كي تزيل كلّ حبّة رمل، متوعّدة إيّايَ بعدم تركي مرّة أخرى أخرج للّعب؛ وهل كانت تستطيع ذلك؟! هل كانت تستطيع مقاومة تَودُّدي؟!

كنّا أطفالاً صغاراً جدّاً، نتصرّف على سجيّتنا. لا ندري ما يخبئه لنا الزّمن الآتي. ولا نكترث له. ميّالين إلى الفرح نتبعه أينما ذهب. وكانت فِرَق العَيْطَة الجوّالة إحدى هذه الغبطات.

ما أن تتناهى أصواتها من بعيد إلى آذاننا، حتّى تشرئبّ أعناقنا الصّغيرة بحثاً عنها بين الدّروب والساحات. وما أن نعثر عليها حتّى نُسمّي ذلك اليوم بيوم الفرحة الكبرى. نتبعهم عبر الأزقة والدّروب، بغير رويّة وبدون تفكير، مهما طال مسارهم، إلى أن يتيه واحد منّا على الأقل في أزقة المدينة. حينئذ تهرع أمهاتنا وأخواتنا إلى البحث هنا بين الدّروب، إلى أن يعثروا عليه بعد بحث مضن، فيتحوّل فرحه إلى حزن. كلّ ما عاشه من غبطة يعيش أضعافه حزناً وكمداً، بعد أن يتلقى جسدُه ما لم يتلقاه طبل فرقة العيطة الجوّالة. لكنّ أحزانَ الطّفولة تُنسى سريعاً بينما أفراحها تظلّ في الذّاكرة.

يتكرّر هذا الأمر كثيراً في المواسم المتعدّدة الّتي تشهدها المدينة على الرّغم من تحذيرات الأمّهات. ولهذا كان بعضهن ما أن يسمعن صوت الطّبلة والمزمار من بعيد، حتّى يهرعن إلى الزّقاق لجمع أطفالهنّ. يصعدن بهم إلى السّطح أو يضعنهم على النّوافذ مسجونين بين الشّبابيك الحديديّة.

تذّكرت العمّة؛ وكيف لا أتذكرها؟! كان خوفها من الجنّ خوفاً يكاد يكون مرضيّاً يلازمها في الصّباح والمساء، أما اللّيل فكانت تعتبره عالم الجنّ، ملكا لهم ولا يحقّ لبني البشر القيام بأيّ فعل أو حركة فيه، إلى أن يحين الصّباح، الّذي تبدأه بترديد تعاويذ تختمها بالبصق في صدرها، بعد أن ترفع عنق القميص. تبصق مرتين أو ثلاثاً. وبعدها تنثر قليلا من الملح أمام الباب قبل أن تخرج إلى الوُسْعَة. كان الملح لا يفارقها تتركه في كيس صغير قرب منضدة السّرير. في ليلة ما نسيتْ وضع كيس الملح قرب رأسها. حلفت باليمين أنّها لم تنم ليلتها، وأنّها شعرت بقُشَعْرِيرَة وبرعشة تغشى جسدها دون أن تستطيع فعل شيء، حتّى الصّراخ كَبحته لخوفها من

ردّة فعل الجنّ. فاللّيل عالمهم الّذي لا يريدون أن يتشاركه معهم بنو البشر.

حاولتْ جدّتي أن تقنعها بأنّ الأمر محض تخيّلات، وأنّ عالم الإنس والجن لا يجتمعان. كلّ واحد منهما سائر لما خلق له. قالت لها إنّ لا أحد في العائلة يصدّق هذا الكلام، وإنها ستصير مثار سخريّة الجميع، وإنّ لا أحد من شبّان العائلة أو القرية سيتقدّم لخطبتها إن بقيت على هذا الحال، خاصّة إذا علم بأمر القشعريرة والرّعشة الّتي غشيت جسدها ليلتها. (لا تلوكِ هذا الكلام أمام أحد) قالت لها جدتي بحزم.

بعد أيّام فقط من اللّيلة إيّاها تقدّم محمود لخطبتها. بعد أسبوع أُقيم العرس، وانتقلت معه إلى بيت أهله حاملة معها كيس الملح.

(طفولة العرائش)

قضيتُ معظم سنوات طفولتي الأولى في مدينتي طنجة والعرائش، هذه الأخيرة مدينة صغيرة بشوارع ضيّقة، لكنّ بحياة مفتوحة على الغبطة والمتع، وعلى المحيط الأطلسيّ. في فترة الشّباب زاد فخرنا بالانتماء إليها بعد أن اختارها الكاتب جان جُنيهْ المدافع عن قضايا الإنسان في العالم وخاصّة على القضيّة الفلسطينية، ملجأ له، وفي وصيّته اختار لجثّته الاستقرارَ النّهائيّ بها، جنب المحيط تماماً، وكأنّه يتمنى أن يُبعث فيها بعد الوفاة؛ جميل أن يطمئن الإنسان على مصير جثّته في حياته، لهذا نجد بعض النّاس، يهيئون لوازم خاصّة تليق للاحتفاء بجثتهم، ثم بعدها يخلدون لنوم سعيد، وكأنّهم ينامون قريري العيون ما دام كلّ شيء جاهز لدفنهم بما يليق

مـن الإكـرام والحفـاوة؛ تـرى أيّ مصيـر ستشـهده جثتـي؟

كانـت طفولـة عاديـة جـدّاً، لا تختلـف عـن طفولـة أيّ شـخص فـي سـنوات السّـتينيات الغامضـة، عشـتُ الاكتشـافات الأولـى بكثيـر مـن الشّـغف، أوّل مذيـاع يدخـل الحـارة، وأول تلفـاز بالأبيـض والأسـود، وغيرهمـا ممّـا كان مصـدرَ افتخـار للأسـر. كان الخبـر يتنقـل مـن مصـدره إلـى أن تتّسـع دائـرة انتشـاره؛ دائـرة العارفـين بالخبـر ودائـرة الزّائريـن، بدعـوة وبدونهـا، مـن أجـل الاطـلاع علـى هـذا الاكتشـاف الجديـد، الّـذي يحسَـبُ الإنسـانُ ألّا اكتشـاف بعـده، لكنّهـا كانـت صناديـق عَجَـب تلتهـا صناديـق عجـب أخـرى. ولا نهايـة للصّناديـق، صنـدوق يختفـي داخلـه صنـدوق آخـر مثـل لعبـة السّـاحر.

(حياة ما قبل الاختطاف)

كانـت السّـماء فـي تطـوان غائمـةً علـى الـدّوام، كأنّ سـحابة الحـزن لا تريـد أن تبـرح أجواءهـا. كأنّهـا تتلفّـع بِغَلَالَـة تأبـى أن تُزيلهـا عنهـا. قلـتُ «علـى الـدّوام» لكونـي جرّبـتُ العيـش فيهـا طويـلا، بـدءاً طالبـاً مقيمـاً فـي القسـم الدّاخلـي لثانويـة جابـر بـن حيـان وثانيـاً أسـتاذا بثانويـة ابـن عربـي للتّعليـم الأصيـل.

لهـذا سـماء سَـبْتَةَ فـي كثيـر مـن الأحيـان كانـت هـي السّـماء التـي نحلّـق فيهـا بحرّيّـة حـين تضيّـق علينـا الحبـال الّتـي تُطـوّق أعناقنـا. تضيّـق كأنّهـا تعلـن نهايتنـا الوشـيكة، أو حـين نشـعر بالقنـوط، ونحـسّ بـأن الهـواء فـي رئتينـا يحتـاج إلـى تجديـد.

صـارت سـبتة بالنّسـبة لنـا فسـحة للحرّيّـة، وللمقارنـة بـين حياتـين لا تبعـدان عـن بعضهمـا البعـض إلاّ أمتـاراً قليلـة، ولا يفصلهمـا

شـيء؛ لا بحـر ولا واد.

بعـد أن يمـرّ صديقـاي عبـد السّـلام الكرفتـي ومـراد التّـازي علـى المقـرّ كنّـا نلتقـي فـي مقهـى باريـس. لـم أكـن أشـاركهما مشـوار المقـرّ، ولا زُرتـه مـن قبـل، علـى الرّغـم مـن دعواتهما المتكرّرة. كنتُ أتحجّـج بضيـق الوقـت أحيانـاً، وأحيانـا أخـرى أصارحهمـا: (أنـا لـم أخلـق لحيـاة الواجهـة. عشـتُ فـي الظّـل، محـدود العلاقـات وأفضّـل أن أظـلّ هكـذا. ثـم إنّكمـا تنقـلان إلـيّ كل مـا يجـري وهـذا يكفينـي... أنـا معكـم بالقلـب والوجـدان.)

نقطـع دروب المدينـة القديمـة، علـى حسـب حالاتنـا النّفسـيّة، نعبرهـا خفافـاً مـن شـدّة الحمـاس وربّمـا الخـوف الّـذي كان يسـكننا ونحـن نحبسـه داخلنـا كلمـا وجدنـا علـى ذلـك قـدرة. كان خوفُنـا كمَـارد سـجنّاه داخلنـا، ونخشـى أن يظهـر لأصدقائنـا أو أن يخـرج إلَـى العيـان، فيَفضـح كلّ شـيء. ويُظهرنـا ضعافـاً. كان رفيقـاي كلّ واحـد يسـتمدّ قوّتـه مـن صلابـة الآخـر.

تُدركنـا صـلاة المغـرب، فـي المدينـة القديمـة، قـرب المسـجد الأعظـم فـي العـادة. كنّـا ننظّـم أوقاتنـا، وفـق مواعيـد الصّـلاة. كنّـا قلّـة ممّـن مازالـوا محافظيـن علـى هـذه العـادات، علـى الرّغـم مـن إيماننـا بقيَـم الحداثـة.

لـم يكـن تنظيمنـا للوقـت بهـذا الشـكل ناتجـاً عـن تديّـن زائـد، وإنّمـا كان عـادة ترسّـخت فينـا، بفضـل أصولنـا البدويّـة القريبـة، وبقيـتْ معنـا رغـم مـن تأثيـرات المحيـط، فالطّبـع الأوّل الّـذي تربّينـا عليـه غـلّاب، مـازال باقيـاً ومُترسِّـخا، هـو جـزء مـن كينونـة تأبـى التّغيّـر مهمـا تغيّـر الزّمـان والمـكان وقـوّة المؤثـرات.

(سنوات الثمانينيات)

كانت السّاعات تمر ثقيلة، فما بالك بالأيّام والشّهور والسّنوات. ثقلها الزّائد لم يكن يخفّف منه سوى بعض التّظاهرات الرّياضيّة العالميّة الّتي كنّا نتابعها باهتمام كبير. نتابعها عبر الشّاشة الوطنيّة، وخاصّة عبر الشاشات الإسبانيّة الّتي نُهرّبها إلى بيوتنا عبر الأمواج وذبذبات الهواء. الفرجة الّتي تمنحها لنا القنوات الاسبانيّة مختلفة جدّاً؛ لغة وأجواء. كنّا نحس أنّها تحرّرنا وتمنحنا الانطلاق بلغتها الحرّة غير المسكوكة. بلغتها المنطلقة المفتوحة على الحلم.

تابعنا مونديال ١٩٨٠م، الذي أقيم في إسبانيا، كما يتابعه الإسبان، على نفس القنوات وبنفس الحماس، بعد أن سارع معظم سكان مدينتيْ تطوان وطنجة إلى اقتناء لاقطات هوائية للقنوات الإسبانية، أما من لم يجد قدرة على اقتنائها بعد أن ارتفع ثمنها كثيرا، فكان يلجأ إلى ربط أواني الألمنيوم في لاقطه الهوائي، علّ الجوّ يكون مساعدا على التقاء قنوات تلفاز المدن الإسبانية الجنوبية القريبة.

كنّا نرتاح قليلاً وننسى أنّنا محتجزو هذه البلاد بالإكراه العاطفيّ وبالاحتجاز البدنيّ بمنعنا من جوازات سفرنا، وتماطلهم في مدّنا بها، إلى أن يئسنا وهدّنا التّعب والانتظار؛ انتظار رؤية البلاد من خارج ومن بعيد. لعلّها تكن رؤية مغايرة. وتكن قدرتنا على تغيير حاله نحو الأفضل ممكنة.

فرحنا لاختيار المغرب لاحتضان ألعاب البحر الأبيض المتوسط لسنة ١٩٨٣م. أقيمت الألعاب في الدّار البيضاء. نقص فرحنا قليلاً؛ (أليس في البلاد مدن على ساحل البحر الأبيض المتوسط تستحقّ التّأهيل من أجل احتضان هذه التظاهرة؟) تساءل أغلب سكان الشّمال دون تعصّب.

انكسَرنا لخسارة اللاعبين المغاربة. فَرحنا للمغاربة والعرب الّذين فازوا... غير أنّ ساعات الفرح عابرة وغالبا لا تكتمل، فبعد شهور قليلة، بداية من الأيام الأولى لـ ١٩٨٤م، ستشهد البلاد انتفاضة الخبز أو انتفاضة الجوع كما تسمى أيضاً. كان التّلاميذ حطبها ووقودها وكان الاعتقال والعنف مُطفئاً ومتصدّيا لها؛ إنّها سنوات التّقويم الهيكليّ الّتي كان من نتائجها الأولى فرض رسوم على التّعليم وارتفاع كلفة المعيشة.

كانت الجنّة الأوربية قريبة منّا جدّا، تُغري الكثيرين، إذ كان جواز السّفر وحده كافيا كي يقطع الإنسان البحر. لم تكن أوربا قد ضاقت بعدُ بأفواج البشر، بل كانت في حاجة إليهم. لكن لم يكن الحصول على جواز السّفر أمراً يسيراً. يحتاج إلى شهور من الانتظار بفعل تماطل السّلطات. وكثيراً ما كانوا يرفضون منحه للّذين يشمّون فيهم رائحة المعارضة أو النّضال أو حتّى للّذين هم غير متأكّدين من ولائهم، أو لمن يطلق عليهم «ذوي الرّؤوس السّاخنة»، وهو نعت عاميّ كان يطلق على الّذين يحتجّون على الأحوال السّيئة للبلاد، وكانوا يطمحون إلى بلاد تسودها المساواة بين النّاس. أمّا الذين يخافون من المطاردات فكانوا يهاجرون سرّاً إمّا بوثائق مزوّرة، أو بحراً في قوارب كان الأوربيون يغضون الطّرف عنها، بمراقبة غير مشدّدة. لكنّ الكثيرين كانوا يفضّلون البقاء في البلاد، ولم تكن أوروبا تغريهم للاستقرار، إذ كان تنشّق هوائها بين السّنة والأخرى يكفيهم. ونحن كان هواء سبتة يكفينا للاستمرار على قيد الأمل شهوراً عديدةً.

قبل سنوات تطوان، عشتُ سنوات العرائش وطنجة الزّاهرة المزهرة بألوان البحر وأطيافه الصيفيّة الّتي لا تنتهي. فيها تعرّفت على العديد من الأصدقاء؛ صداقات الطّفولة والشّباب

لا تعوّض ولا تنسى، مثلها مثل عشق المراهقة، لا ينمحي من القلب، حتّى وإن اعترفنا بأنّه كان محض سراب لا يمسك. حتّى وإن اختفت منه كلّ الملامح، ولم نعد نتبيّن منه سوى الهَيُولَى. حتّى وإن لم نتعرّف على اسم المحبوبة الأولى نظلّ نستكين إليها في الأحلام، ونعتبر بيننا وبين أنفسنا أنّ ما جاء بعدها نسخ مكرّرة فقط، لا تصل إلى الأصل الأوّل وإن تماهت معه.

في العرائش، بالإضافة إلى بيت العائلة، كانت لديّ غرفة صيفيّة أُسرع إليها كلّما أعلن الصّيف قدومه. غرفة في الطّابق الثّاني بشرفة واسعة أمامها، لم أرد أن أسقّفها بالخشب. فضّلتُ أن تظلّ هكذا مفتوحة على السّماء. كانت الغرفة جزءاً من إرث تملّكه الوالد ومكّنني منه عربون ثقَة؛ مجرّد غرفة يوصلُ إليها عبر أدراج منفردة من الطّابق الأرضيّ، لكنّها كانت تكفي لكلّ شقاوة المراهقة والشّباب، ولإشباع نزوع الحرّيّة خاصّة في فصل الصّيف.

كان حيّ «بابُ البَحْرِ» أو «باب لْبْحَر» كما ينطقها الناس اختصاراً، حيّاً منفتحاً على الحياة، تماماً كما هو البحر منفتح على اللّانهائيّ غيرِ المحدود. الأصدقاء يأتون إلى الغرفة مع حلول الصّيف. وأَحْمدُ نذير قدوم هذا الفصل، إذ ما أن ترتفع درجة الحرارة قليلاً في شهر مايو حتّى تجده جالساً في الحديقة المقابلة للغرفة ينتظر.

إذا جاء أحمدُ جاء الصّيف، وإذا جاء الصّيف جاء أحمد. هكذا كنّا نردّد جميعاً محاولين استفزازه.

كانت الغرفة مفتوحة على ساحة باب البحر، ومنها إلى البحر مباشرة، على مدخل الميناء الذي تشترك فيه مياه الوادي

الحلوة مع مياه وأمواج البحر. لزمن طويل سمّيَ هذا المدخل بفم السَّبُع لكثرة ما التهمَ من بواخِر الصّيّادين الصّغيرة والكَبيرة منها.

تتحوّل السّطيحة إلى غابة من الضّباب في أوّل الصّباح وآخر اللّيل. يأتي بها البحر. غيم مالح لا تطرده إلا الشّمس. الأزهار وأصص النّباتات تنتعش هي أيضا بذلك الهواء البحريّ الأُجاجيّ، المتخَم برائحة النّباتات البحريّة المنعشة والمخدّرة بالنّسبة للّذين تعودوا عليها منذ يَرَاعِهم.

كثيراً ما يقضي ليلتَه هناكَ. بعد أن يُخرج الكرسيّ الخشبيّ الطّويل.

كانت رؤية البحر تُغنِي وتُزهد المرء عن الذّهاب إليه والسّباحة فيه. الاكتفاء برؤيته عوض السّباحة فيه، على الرّغم من قربه الشديد.

قدوم أحمد ومكوثه في البيت كان يُغنينا عن الكثير من الأمور، إذ لم يكن أحدٌ ينافسه في إعداد طَوَاجِين سمك السّردين وكؤوس الشّاي بالنّعناع، النّبتة المنعشة، الّتي يخصّص لها أصصاً محترمة مع أوّل يوم من مقدمه، إضافة إلى نباتات أخرى كان يأتي بها معه.

(امرأة تزورني في الصباح)

– (امرأة تَزُورني كلّ صباح.) هكذا كان يقول عليّ الخبّار بين اليوم والآخر.

لم أجرؤ على سؤاله. ولا أحد تجرّأ على فعل ذلك في الأيّام الأولى. غير أنّ التّربيّون جمع كلّ قواه، وقال: من هي!؟

خـال الجميـع أنّـه جمـع كلّ قـواه، لأنّ كلماتـه خرجتْ بنـوع مـن السّـرعة المباغتـة، كأنّ الـكلام بقـيَ محبوسـاً بـين أسـنانه طيلـة كلّ الأيّـام السّـالفة.

– امـرأة مـن زمـن آخـر لـم أعرفـه، فأنـا لـم أعرفهـا أبداً، هـي لا تنتمـي إلـى ماضـيّ كمـا أنّهـا لا تنتمـي إلـى المسـتقبل، هكذا كنتُ أخـال. فـلا يمكـن لمثلهـا أن تنتمـي لمسـتقبل غامـض ضبابـيّ. لا شـعرة أمـل فيـه ولا حتّـى شـعرة معاويـة الرّقيقـة جـدّاً. أجـاب عليّ الخبّـاز.

– ومن أين أتت إذن؟

–كيـف لـي أن أعـرف؟! امـرأة بيضـاء سـاحرة... لـم أسـتطع أن أسـألها حتّـى عمّـن تكون، وكيـف لـي أن أجـرأ، وأنـا لـم أكن أظنّ أنّ مثلهـا قـد يزورنـي حتّـى فـي الأحـلام... فـي أحـلام ليالـي الحرّيّـة. قـال.

كانـت الجملـة الأخيـرة كافيـة كـي تفتـح أذهاننـا علـى أحـلام عاريـة. امـرأةٌ بيضـاء سـاحرة جالـت بيننـا، كلّ واحـد منّـا تخيّلهـا كمـا يشـاء. لكنّهـا بقيـتْ امـرأة صباحيّـة بالنّسـبة لـي. ولا أدري كيـف اسـتحالت عنـد الآخريـن!

(مرض التّوربيّون)

فـي أحـد الصّباحـات، انتظرنـا مـن التّوربيّـون أن يتكلّـم... أن يخبرنـا بحلمـه. انتظرنـا، وانتظرنـا إلـى أن ناديتُـه:

– آالتّوربيّون...آالتّوربيّون!

لم يرد.

– آالتّروبيّون... نطقها عليّ الخبّاز بصوت أعلى من صوتي.

صدرتْ عن التّوربيّون غمغمة. وصوتُ حركةِ رِجْلٍ أو يدٍ لم تستطع أن تعلو عن الأرض.

لم يسبق أن فكّرنا، طيلةَ الأسابيع الّتي ظللنا فيها هنا، ماذا سنفعل لو مرض أحدنا؟ كانت أذهاننا خالية من البحث عن كيفيّة تدبير مثل هذه الحالات المستعجلة أو الطّارئة، إذ كان كلّ تفكيرنا يقتصر على تدبير الأمد القصير من الوقت، فلم يكن أحدٌ منّا يظن أنّ مكوثنا هنا سيطول إلى أن تصادفنا أحداث مثل هذه. حتّى أنّنا لم نسأل بعضنا على مهن بعضنا البعض تحسبا لمثل هذا الأمر، فكان المسوّغ في ذلك الصّباح حاضراً كي نعجّل به:

– هل من طبيب بيننا؟ سأل عليّ الخبّاز بلهفة.

– شبه طبيب... اشتغلتُ ممرّضاً مساعداً في أحد المراكز الطّبّيّة. أجاب يوسف. لكنّني أستطيع المساعدة فيما أظن، أو على الأقل أشخّص الحالة، إن كان الأمر بسيطاً غيرَ معقّدٍ.

بينما قام يوسف باتجاه التّوربيّون لفحصه والاطمئنان عليه. كان الجميع يُدلي بمهنته فيما يشبه التّصريح:

أنا: أستاذ.

يْكِنْ: مياوم من الدار البيضاء.

موسى أزيار: تاجر حبوب.

عليّ الخبّاز: أعملُ في قطاع النقل.

محفوظ العرايشي: أشتغل في البريد.

محمد بلفقيه: خبّاز بمخبزة.

عبد اللطيف بنموسى: مسيّر مقهى شعبي.

عبد الله السلاوي: عامل في النسيج.

اكتمَل دفتر إقامتنا هنَا، ولم يكن ينقصنا إلا تصريح التّوربيّون.

مغاربة من كلّ مناطق البلاد، من مختلف الجهات واللّهجات. كأنّنا تمثيليّة نيابيّة لأمر ما ثم جمعها هنا. أيّ خلطة ناجحة هاته؟ كأنّنا كنّا ممثّلين للمغرب الشّاسع المترامي، المتشارك في آلامه. هل كان تجميعنا هنا بهذه الكيفيّة تدبيراً محكماً، أم أنَّ الأمر اعتباطيّ، دبّرته الأقدار فقط؟!

لا إجابة، غير أنّ السّؤال مشروع جدّا، ثم أيّ مكان تمّ اختياره كي يحتضننا جميعاً؟ هل نحن في وسط الدار البيضاء أم في الرباط أو بينهما. إذ ليس من العدل أن يتمّ اختيار مكان آخر دون غيره من هذه البلاد الشاسعة؟!

– (ليس به إلا حمى خفيفة، ستزول إن شاء الله. علينا فقط أن نحمله إلى القبو فهنالك الجوّ بارد قليلاً، وهذا سيساعد على خفض درجة حرارته.) قال يوسف الّذي صار –فيما بعد–طبيبنا جميعاً.

سَاعَدْنا التّوربيّون على النّزول إلى القبو، مكانه الأثير، الّذي لم يصعد منه، منذ ذلك الوقت، إلا عند حاجته لدخول المرحاض، أو لكي يُشاركنا الطّعام.

صرنا نفتقد لأحلام التّوربيّون في الصّباح، وصرنا نفتقد جولاته اللّيليّة المؤنسة دون دعس. ولحسن الحظّ أنّ سراحنا لم يتأخّر كثيراً بعدها إلا بأسابيع.

خشيتُ موته أكثر من أيّ أمر آخر مرّ بي هنا، وربّما الآخرون أيضاً استشعروا هذا الفزع. كيف سنتعامل معه، وكيف

سيتعامل معه الحرّاس؟ هل سيسألوننا عن سبب الوفاة؟ هل سيقومون بالتّحقيق معنا في الأمر؟ لماذا مات هو دون غيره، وقد كان يظهر أنّه أقوانا وأسلمنا بدناً؟! لكنّ الموت لا يفرّق بين أحد، وفي كثير من الأحيان لا يضع هذه أيّة معايير في حسبانه.

قد يأتي بغتة أحياناً.

كان خوفي يتضاعف حين أفكّر أن باب الموت إن فُتح في هذا المكان من الصّعب إغلاقه. الموت إنْ ولج مكانا تنفتح شهيّته؛ إن مات التّوربيّون سنترقّب موت أحد آخر. فللموت وقعه المميت على الأحياء. تفرّستُ الوجوه. وجهاً وجهاً. خَشيتُ عليهم جميعاً منه.

(أيّام وشهور متشابهات)

مرّت الأيّام بعد هذا الحادث في انفراط سريع. حبَّاتٌ تخرج من العقد، تستبقها لوقت قليل بعضُ العوائق الّتي تجعلها تمرّ بطيئة شيئاً ما؛ مدّة ثلاثة أيام لم يمد لنا الحارس خرطوم المياه، فظلّ المرحاض بدون تنظيف وظلّت الأواني التي نملأها بالماء فارغة. وفي اليوم الأخير من الأيّام الثّلاثة لم نتلق طعاماً.

صارت الرّائحة الكريهة تزكم الأنوف، وتسبّب حكّة في العيون. ونحن في انقطاع تامّ عمّا يجري في الخارج من وقائع تَكهَّنَا بالأسوأ:

- هل سنموت جرّاء رائحة فَضَلاتنا؟

- إلى متى نستطيع أن نصمد هكذا؟

- هل الأمر مدبّر؟

- هل التّعذيب الجسديّ بدأ؟

قال التّوربيّون، ثم عليّ الخبّاز، فمحفوظ العرايشي، ثم يُكِنّ بأصوات متصاعدة.

- (لم لمْ يغيّروا أيّ واحد منّا؟ ولمَ لَمْ يخرج أيّ واحد منّا من هنا منذ مدّة؟) هكذا كنتُ أتساءل في داخلي، فنحن لم نكن سوى قطعٍ من الأثاث الجامد، يفعلون بنا ما يريدون، لم نكن كائنات تحيَّى وتتنفّس.

بعد برهة صاحَ أحدٌ:

- ربّما نَسونا في هذا القبو.

كأنّه كان يجيب عن تساؤلي الدّاخلي.

وهنا تدخّل عليّ الخبّاز بصوت أعاد الأمل إلى نفوسنا:

- يوم واحد بلا طعام لا يكفي كي نحكم على الأمر... لننتظر الغد.

في صباح الغد كان الحارس يمدّ خرطوم المياه ويقدّم صحن الطّعام.

لم ينقص مقدار الطّعام الّذي كان يمنح لنا، ولم يتغيّر، وهذا دليلٌ أنّنا ما زلنا في بَالهم، وأمرنا يَهُمّهم، وأنّ الميزانيّة المرصودة لإطعامنا ما زالت تُصرف.

(صباح الطّائرات)

بعد مرور يومين، سمعنا أصوات الطّائرات. كانت أصواتاً قريبة تتنافس في الحدّة. لم نستطع أن نتحدّث عن الأمر. أنصتنا إلى أصواتها إلى أن اختفت. وبعدها بمدّة طَرَدْنَا الخوفَ وانفكّتْ عقدة لساننا.

– إنّها أصوات طائرات حربيّة؟

– من أين تأتي وإلى أين تذهب؟!

– هل قامت حرب ما؟!

– لا أعتقد ذلك؟ ثم وإن وقعت، فهي حرب لا حاجة فيها للطّائرات.

– صحيح... انطلق صوت... إنّها حرب رمال وحرب دبّابات. حرب بلا ضجيج كبير.

– كأنّها حرب خفيّة، أو يراد لها أن تكون كذلك. لكن أحياناً يعلو ضجيجها.

كانت حرب الرّمال حول الصّحراء تخمد وتشتعل كلّما هبّت رياح خفيفة من هنا أو هناك. وكان أهل الجنوب أعرف بها منّا نحن أبناء الشّمال. فهم يرون المعدّات الّتي تتحرّك ويتمّ نقلها بين الحين والآخر. كما كان عدد كبير من أبناء الجنوب مجنّدين فيها، على خطوط التّماس. أما بعض العائلات فكان اطّلاعها على هذه الحرب بطعم الفجيعة لموت الأب، أو لفقدان أحد الأبناء وعدم معرفة مصيره أحيّاً أم ميّتا.

عرفنا فيما بعد أنّ الأمر لم يكن متعلّقاً بهذه الحرب، بل بأخرى نيرانها أكثر ضبابيّة، إنّها نيران الاحتجاجات في

مدن الشّمال الّتي لم تخمد نهائيّاً بعد، وشرارتها تهدّد في كلّ حين بالانتقال إلى مدن أخرى، فما كان من السّلطات إلا تجييش الطّائرات الحربيّة لإشاعة الخوف بين النّاس، خاصّة أنّ المغاربة لم يعتادوا على أصواتها.

(شمعة واحدة لليلة كاملة، لكنّها كافية)

في الأيّام الأخيرة بدأت توزّع علينا مع الأكل شمعة. شمعة واحدة وثلاثة أعواد ثقاب. إن لم يفلح أحدها في إشعال الشّمعة قضينا تلك اللّيلة في الظّلام بدون ضوء.

شكّل الشّمع جزءاً من معيشنا في حياة الخارج. إذ كانت الكهرباء تعرف انقطاعات كثيرة في المدينة. نحتفظ دائماً ببعض الشّمع فوق الثّلاجة. ما أن ينقطع الكهرباء حتى نسارع إليه. كما يسرع كلّ من هو بعيد عن البيت إلى العودة إليه، خاصّة إذا انقطعت كهرباء الشّوارع والبيوت معا، إذ كانت لكلّ واحدة شبكة خاصّة بها.

حين تنقطع كهرباء البيت دون كهرباء الشّوارع، كان كلّ من بالدّاخل يسارع إلى النّوافذ والشّرفات أو عتبات المنازل، منتظراً أن يعود الكهرباء. تشرع النّسوة في الحديث بينهن في انتظار أن يعود الكهرباء أو أن يعود زوج إحداهنّ.

كانت فرحتنا لا توصف. تحلّقنا حول الشّمعة حتّى كدنا نخنق وَهَجَها، مغمورين بفرح طفوليّ لم نعشه منذ مدّة طويلة. عيوننا في اتجاه الشّمعة. نراها تحترق فتضيء ليلنا. كلّ واحد منّا يتمنّى أن يطول عمرها.

في اللّيلة الأولى دار بيننا جدل حول الاقتصاد والتّقشف في

الشّمعة، إذ لم نكن نعرف هل سنحظى بواحدة أخرى أم لا... أم أنّها كانت شمعتنا الأخيرة. أم أنّ الأمر في مُجمله كان خطأ وسوء تقدير، أم أنّه كان مبادرة شخصيّة من الحارس ولن تتكرر أبداً.

اتّفقنا على أن نحتفل بالشّمعة، وأن نستضيء بها ليلَتَنا تلك، كما لو كانت هي شمعتنا الأخيرة. كما لو كانت ليلتنا تلك هي اللّيلة الأخيرة.

فرحتنا كانت عظيمة حين حضينا بشمعة ثانية في اليوم الموالي، قدِّمَتْ لنا مع الأكل، الّذي تحسّن طعمه هو أيضاً، أو هكذا تهيّأَ لنا، خاصّة أنّنا قرّرنا أن نترك بقيّة من طعام لوقت المساء، لننعم بعشاء على ضوء الشّمعة. عشاء لذيذ لمً نعرفه منذ أن ولجنا هذا المكان.

قرّرنا ألا نفرّط في أعواد الثّقاب الّتي تفضُل بعد التّمكن من إشعال الشّمعة. تركناها في زاوية من الحجرة. بدأنا نسميها: «زاوية أعواد الثّقاب». وهكذا أصبح المكان يتّسع في أذهاننا، ويأخذ تقسيمات عديدة.

(سَرَاحُ)

أصبحَ الحارس وهو يحمل الطّعام يلقي التّحيّة. إضافة إلى أنّ حجم الطّعام قد تغيّر. ازدادت كمّيّته قليلاً، وتغيّر نوعه إلى الأفضل. والحقّ أنّنا كنّا نعتبر تحيّته لنا أمراً عظيماً، أكبر من زيادة كمّيّة الطّعام، فهي على أيّة حال كانت القاطرة بين عالمنا نحن وعالم الأحياء.

صار الحارس يمدّ خرطوم الماء ويبقيه لوقت أطول، أصبحنا

نسمع خلاله همهماته وضحكاته مع الحارسيْن الآخريْن. لقد أصبحوا مَرحين، يُحدثُون الضّوضاء حول المكان، ويظلّون فيه وقتاً أطول، فَهمْنا هذا من عدم استعجالهم لسحب خرطوم الماء. مرّة نسوه إلى أن غسلنا أجسادنا جميعاً.

لم يكن لدينا أيّ تفسير لهذا. فهِمنا فقط أنّ الأمور تغيّرت، لكن في أيّ اتّجاه، لم نكن ندري.

هل تناهى إلى علم الحرّاس شيء يفيد أن مسألتَنا في طريقها إلى الحلّ؟ لم نعرف.

قلنا إنّهم ربّما سيقدّموننا لمحاكمة علنيّة، وهم لا يريدون أن تتكشف سوء معاملتهم وتغذيتهم لنا من خلال أجسامنا الّتي أنهكها الهزال وحوّلها إلى أشباح أجسام. أو ربّما أنّهم سيُفرجون عنّا دون أيّة محاكمة ودون أيّ إجراء آخر، ولا يريدون أن يكتشف النّاس أنّنا كنّا مقيمين في الجحيم.

هل جاءهم أمرٌ صريح؟ هل تناهى إلى سَمْع الحرّاس شيء واضح، أم أنّهم حسّنوا معاملتهم لنا من تلقاَء أنفسهم، بعد تلقيهم أمرا بتقديم كميّات طعام أكبر من الّتي ظلّوا يقدّمونها لشهور بَدتْ سنوات؟

في ليلة سمعنا صوتَ محرّك سيارة. كان الصّوت يقترب ويزداد حدّة. مُستلقين، كلّ واحد على بطانيّته، لا أحدَ بادر إلى التّعليق على الأمر، ربّما كلّ واحد كان ينتظر قولَ الآخرين. لا صوت خَالَطَ صوت المحرّك إلىً أن كانت السيّارة تهدر بمحرّكها أمام الباب، وضوؤها متّجه نحوه مباشرة. تخترق أشعّته خلل الباب الحديديّ.

فتح الحرّاس الباب. كنّا كلّنا واقفين. تذكّرتُ حينها صباح

البخار. لم أتبيّن هيئة الحرّاس جرّاء الضّوء الشّديد الّذي كان موجّها إلينا، يُعمي أبصارنا.

أَمرَنا حارسٌ بأن نستدير جميعاً جهة الحائط، وطلب من رفيقه الحارس الآخر أن يضع العِصَابَات على أعُيننا. ماذا ينتظرنا؟ هل انتهى الفصل الأوّل من المعاناة، وسيبدأ فصل جديد، اللّيلةَ، في مكان آخر؟

الأسوأ هو ما كنتُ أتوقّعه، لكنّهم أطلقوا سَرَاحَنا.

أخرجونا من الحجرة واحداً واحداً. أصعدونا إلى سيارة الفَارغُونيط (عامية) الكبيرة. مُلتصقين ببعضنا البعض جَلَسْنَا.

تحركّت السيّارة في طريق يبدو أنّها متربة وملتوية، إلى أن استوَتْ بعد مدّة قصيرة على طريق معبّدة، استمرّت سائرة عليه إلى أن توقّفتْ. ظلّ محركّها شَغَّالاً وفُتح باب السيّارة مُصدراً صوتاً كالصّفير.

ــ أنزِل الأوّلَ. قال أحد الحرّاس.

لم نفهم شيئاً، زاد الموقف غموضاً. ثمّ اهتزّت السيّارة مؤشّرة على حركتيْ نزول وصعود.

ــ ألم تنزع عِصَابَتَه؟! قال نفس الحارس.

ــ لنتركهم بها. أجاب الآخر.

ــ لا تنس أن تعطيَ كلّ واحد بعض النّقود كما طُلب منّا، كي يتدبّر أَمْرَه.

ماذا يعني هذا؟ لا أحد كان يملك جواباً.

أحسسنا بحركة الحارس يصعد إلى السّيارة ويُغلق الباب.

تحرّكت السّيارة مرّة أخرى، وبعد مسافة توقّفت. سمعنا صرير الباب المزعج، وأحسسنا بالحارس ينزل ويُنزل معه أَقْرَبَنا إلى الباب.

سِير بحَالْكْ... اذهبْ إلى حال سبيلك. قال الحارس.

لم يقل أنت حُرٌّ. فلا معنى للحرّيّة. هي كلمة محرّمة لا يعرفها الحارس، ولا يَفْقَه معناها.

لم يذكروا لنا أنّه سيتمّ الإفراج عنّا، لكنّ الفعلَ أبلغ من القول. صرير باب السيّارة أضحى مُفرِحاً؛ مع كلّ صرير تُفتَح بابٌ للحرّيّة.

كنتُ في الوسط تقريباً قَبْلي التّوربيّون، وبَعدي عليّ الخبّاز. حين جاء دور الأوّل، وقبل أن ينزل دفعَ ذراعي بذراعه تحيّة صامتةً لي. نفسُ الأمر فَعلتُه مع عليّ الخبّاز. لم يكن هنالك مجال لأيّ كلام. خشينا أن يتراجع الحرّاس عن قرار إطلاق سراحنا لسبب ما، حتّى لسبب تافه كأنْ نحيّيَ أو نودّع بعضنا البعض.

أخذ الحارس يدي. وضع فيها قطعاً نقديّة قليلةً. وقال عبارته الّتي كرّرها عشر مرات في تلك اللّيلة:

ـ سِير بحَالْكْ... اذهبْ إلى حال سبيلك.

أَطْلَقوا سراحنا في اللّيل، الواحد تلو الآخر، لا تفصل بيننا إلاّ مدّة زمنيّة قصيرة. لم نكن نعرف مغزى لهذا الفعل سوى أنّهم لا يريدون أن نخرج مجتمعين، وألا نتبادل أيّة كلمات، وحتّى ألا نودّع بعضنا كما يجب، وداعاً موجعاً، ولم يرغبوا أن نتبادل حتّى النّظرات، لهذا تركونا معصوبي العينين. فَرَحُنا لم يكن في الوقت نفسه واللّحظة، كلّ واحد فَرح بانفراج

حَبسِه في لحظة مفارقة لإحساس الآخرين. حتّى الاشتراك في فرحة الإفراج استكثروها علينا! أين فكّروا في كلّ هذا وأين تعلّموه؟ كيف تعلّموا هذا الكيدَ الّذي يفُوق كلّ تصوّر؟

يريدون أن يذهب كلّ واحد إلى حال سبيله لا يلوي على أمر. لا يُعرف له أثر عن حياته الماضية. يريدون أن ننسى ما عانيناه، فلا نحكيه لأحد. ويريدون منّا ألا ننسى ما عشناه أيضا، وأن يظلّ محفوراً في وجداننا كي لا نعود إلى حياة الحلم بغد أفضل.

أَطْلَقوا سراحنا تباعاً منذ منتصف اللّيل، وحتّى قبيل الفجر بقليل، والنّاس نيام كي لا يشعر بذلك أحد، كأنّنا مجرّد كلاب ضالّة، ضلّت الطّريق لشهور، وهي الآن تعود إلى بيوتها كأنّ شيئاً لم يقعَ.

أزلتُ العِصابَة عن عيني، ما أن أحسستُ بالسيّارة تتحرّك. حدّقت فيها بصعوبة وهي تبتعد في الشّارع ذي الإنارة الشحيحة. هذا الشارع أعرفه، لم أكن مصدّقاً الأمرَ.

لم أدر كيف وصلتُ إلى باب الدّار.

أخذتُ نفساً عميقاً قبل أن أطرق الباب. لا بدّ أن فاطمة نائمة. لكن هل هي هنا. هل ما زالت تقيم في المنزل؟ أم تراها رجعت إلى أهلها تستجير بهم من هذا المصاب؟

طرقتُ الباب طرقاً خفيفاً في البداية. طَرْق الخائف. لكنّي استجمعتُ قواي، واستجمعت قبضتيّ وصرت أضرب الباب بكلّ ما أملك من قوّة. أضربها ضَرْبَ الطّفل الخائف المطارَدِ من أحد، ويريد أن تفتح أمّه له الباب بسرعة كي يتمكّن من الاحتماء بحضنها. طرقتُ الباب طرقاً هستيريّاً. لست أدري

كم من الوقت استمر؟ لم أسمع صوتاً بالدّاخل؛ وكيف له أنْ يُسمع مع قرعي الهستيريّ للباب؟! لم أسمع سؤال: من بالباب؟ أو من الطارق؟ إلى أن انفتح الباب، وأنا ما زلت أقرعه، لتتشابك قبضتاي مع ذراعيّ أمّي الّتي انهارت ما إن أمسكت بي. غير أنّي تمكّنت من رؤية الفرحة في عينيها. لا أسئلة في بريق عينيها، فقط فرحة لا أدري مقياسها. فرحةٌ لم أرَ مثيلاً لها يوماً.

نسيتُ في تلك اللّحظات كلّ شيء. نسيتُ التّعب، والشّهور الماضية، والحارس، ورفقاء المحبس. كأنّني عدتُ طفلاً صغيراً يعود من المدرسة لتستقبله أمّه بأحضانها، كأنّ السّويعات القليلة الّتي غابها دهر. كأنّني عدت من عالم الشّرّ إلى عالم الخير. وكنتِ أنتِ يا فاطمة على بعدِ خطوات قليلة من أمي تقفين مذهولة لا تدرين ما تفعلين؛ هَل تتقدّمين إليّ لتساعديني في حمل أمي المنهارة؟ هل رأيتِها أساساً تنهار أم أنّ رؤياي حجبت عنك رؤية كلّ شيء؟!

ساد الذّهول قبل أن تصرخي. صراخ لم أتبين منه أيّ شيء، فقد اختلط بصراخي وبصراخ أمي. فلم أعد أتبيَّن صوتاً، بل الأصوات استحالت صمتاً طويلاً.

أَجْلَسْنَا أمّي على أقرب أَريكَة. واحتضنتُك كثيراً لوقت طويل. أتملاك وأعود لاحتضانكِ بدون كلمات، فبريق عَيْنَيْنَا كان كافياً لِلتّعبير عن كلّ شيء. وأيّ كلمات تكفي بلسماً لاختفاء مفاجئ وعودة مفاجئة؟!

كان وجهها كالحاً، كأنّ النّوم لم يعرف طريقاً لجفونها لشهور. كأنّها لم تكن تضع رأسها على وسادة ولا مدّدت بدنها على سرير، كأنّها قضتْ كلّ هذه الشّهور فوق الأريكة، تنتظر

قدوميَ الوشيك. ظهرت تجاعيد على وجهها، وحاجباها أصبحا يعانيان من تقاطب دائم. آه يا فاطمة! كم كان هذا الأمر صعباً عليك. لقد شخت، كأنّ ما مرّ من زمن سنوات كثيرة. غير أنّي لم أستغرب للأمر، فقد كنت أعرف مقدار حبّك لي. وقَبْلَهُ مَعدِنَك الأصيل وروحك الوفيّة.

استيقظتْ أمي من دَوخَتِها وسارعتْ إلى احتضاني بلهفة الأمّ، تحتضنني وأحتضنها كأنّها تريد أن تعود بي إلى داخلها العميق والهادئ والآمن. تطعمني بمشِيمَتها وتجعلني أتنفس برِئَتَيها. ثمّ انطلق سيل أسئلتها الهادر. أين كنت؟ ماذا فعلوا بِكَ؟ متى أفرج عنك؟ لمَ لم يتم إخبارنا؟

لم أكن أجد أجوبة لأسئلتها، ولم يكن لساني يُطاوعني للحديث عمّا حصل، ولم أرد أن أتذكّر لحظتَها ما عشتُه. دون وعي لا أريد أن أفسد لحظات الهناءة تلك بالفواجع الماضية. استشعرتْ فاطمة هذا، فقالت لأمي: (دعيه يستريح قليلا... سيحكي لنا كلّ شيءٍ حين يريد). وكانت فاطمة تقصد دعنا نستريح جميعنا قليلاً، فهو لديه ما يحكيه، ونحن لدينا ما نحكيه أيضاً. ولا مجال للقيام بهذا الأمر الآن بعد ما مرّ بنا من أهوال وما عشناه من متاهات.

قامت فاطمة إلى المطبخ وأحضرت قنينة من الماء وناولتني إيّاها. أفرغتُ ماء القنينة في جوفي. كان الماء زلالاً منعشاً لم أشرب مثله منذ شهور، فماء البئر الفاتر والثّقيل، الّذي كان يأتينا عبر الخرطوم، كنّا نُنَزّله في جوفنا مُكرهين، نظراً لطَعمه وللمغص الشّديد الّذي كان يُسبّبه أحياناً.

كانت رغبتي أن تستغرق روحي في نوم ثقيل لا أشعر فيه بأمر، خاصّة بعد أن اطمأنت نفسي على حالتَيّ فاطمة وأمي، فهما

لم يصابا بأيّ مكروه كبير. لكن النّوم كان يجافيني ويخاصم عيني. أغمض عينيّ بكلّ ما أوتيتُ من تركيز، غير أنّ النّوم لا يأتي. تذكّرتُ حكايات عليّ الخبّاز وأحلام التّوربيّون، فنمتُ، لا أعرف لكَمْ من الوقت. فتحتُ عينيّ لأجد أمّي وفاطمة ووَلِيداً بينَ يديْها يحاول أن يتحرَّرَ من قبضتيْهما.

نعم هو ابني، عرفتُ ذلك بدون أيّ سؤال أو إشارة. فقط عرفتُ ذلك بعاطفة الأبوّة الّتي لا تخطئ. استويتُ جالساً ومددت ذراعيّ لحمله، فانقاد لذلك، كأنّه يعرفني، كأنّه كان بانتظاري.

سمّيناه: (صامد). قالت أمّي. واستتبعتها فاطمة بإيماءة من رأسها. نعم إنّه ابنُنا، من صُلبنا، ومن صلب مُكابداتنا في هذه الحياة.

❖ ❖ ❖

ــ (أطلقوا سراحنا معصوبي العينين كما أدخلونا. نجونا، ولم يتحوّل القبو إلى قبر لنا... نجونا جميعاً. على الأقل لم يمت أحدٌ هناك على مرأى ومسمع منّا. نجونا من موت كان أقرب إلينا من المحيا.) هذا ما كنتُ أكرّره لفاطمة وأمي طيلة ساعات.

الفصل الثاني

(سنوات السّراح الأولى)

في الأيّام الأولى من السّراح، أو الحرّيّة، لستُ أدري، فالسّراح خاصّ بمسجون معروفة مدّة عقوبته. هل هو خروج وعودة إلى الحياة مرّة أخرى لا غير؟!. لا أعرف ما كنّا نعيشه، هل

هو اعتقال أم اختطاف أم فترة استراحة منّا ونحن على قيد الحرّيّة؟!

صار الخوف يسكنني أكثر ما كان عليه الأمر في المعتقل، فلم أدر كيف أتصرّف؟

الفصل صيفٌ في أيّامه الأولى. أخبرتني زوجتي أنّها قد ذهبتْ إلى إدارة التعليم، وأخبرتهم أنّني اختفيتُ دون تحديدي لأسباب. أخبرَتْهم أنّها سألتْ أقسام الشّرطة والمستشفيات دون جدوىً أو أمل. سجّلوا ذلك بعد أن أخرجوا ملفي، دون إبداء أيّ رأي في المسألة. اكتفى الموظّف برسم علامات الأسف، كما أخبرتني، بعد أن نظر إلى وجهها الصّبوح. (أسفٌ على ماذا، لا أعرف، ولا أريد أن أعرف ذلك بوضوح؟!) قالت زوجتي.

فضّلتُ مكرهاً، في الأيّام الأولى أن أظلّ بالبيت، دون فعل أيّ شيء، غير أنّ نهاري انقلبَ إلى ليل، وليلي صار نهاراً ناصع البياض. حاولتْ فاطمة ترغيبي، ثمّ إرغامي على زيارة طبيب نَفْسِيّ، على الأرجح، ليُساعدني على تجاوز الأزمة، ومحاولة نسيان كلّ ما حدث والعودة من جديد إلى الحياة الطبيعيّة.

أرّقني التّفكير فيما عشته. كيف أستوعب هذه التّجربة. هل كان اختطافي محض خطأ... تقدير خاطئ؟!. من أمر باختطافنا ومن أمَرَ بإطلاق سراحنا؟! ولِمَ أنا دون بقيّة صديقيّ؟! تداركتُ: أنا لا أعرف ماذا حلّ بهما، وعدم تواجدهما معي في نفس المكان لا يعني أنهما لم يتعرضا لما تعرضت له. ربّما كان مصيرهما أسوأ بكثير مما لقيته أنا.

كلّ هذه الأسئلة تهجم على فكري دفعة واحدة، وتضغط عليّ. وحين أحاول أن أجد لها أجوبة، لا شيء يبقى في ذاكرتي. تتمحي كلّ الأفكار، كلّ الهواجس، فأعجز عن تجميعها من

جديد. كيف أتجاوز هذه الصّفحة إلى صفحة أخرى من الحياة، وهي صفحة بيضاء بلا أيّ تسويد. بلا أسطر ولا أيّ شيء. كيف أقرّر مسار حياتي كما تَطلُبُ ذلك فاطمة وأمي بهذه السّرعة... تخشى فاطمة أن أمكث طويلاً في لحظة البياض هاته، فيصعب عليّ تجاوزها.

أحاول أن أفكّر في كلّ تفصيل حياتيّ على حدة، إلا أنّ كلّ تفاصيل الحياة الماضية والمستقبليّة تتجمّع دفعةً واحدةً أو تختفي دفعةً واحدةً لتتركني في البياض المشعّ المعمي.

(حجر فاطمة)

كان حجر وحضن فاطمة، ملاذي الأنجع من أيّ سرير طبيب نفسيٍّ. أضع رأسي فوق فخديها تماماً. عينيَّ ترى وجهها. أراها وتراني. أنا ممدّد، وهي جالسة. حين أتعب قليلاً أوجّه وجهي جهةَ بطنها. أغرسه في حضنها تماماً. أشعر بدفء خاصّ جدّاً، بهدوء وطمأنينة غريبة، تمنحني الطّاقة للتّفريغ من جديد.

تأخذ الكلمات الشّكل الّذي تختاره. تتداعى بالصّورة الّتي تشكّلت بها أوّل الأمر. تتوالى الذّكريات دون ترتيب، ودون توجيه مسبق منها؛ ذكرياتي وذكرياتها. ذكرياتُ الحجز وذكرياتُ البحث... ذكريات الغياب وذكريات الحضور.

أحكي أنا، وتحكي فاطمة. يكمّل حكيُ أحدِنا حكيَ الآخر. حياةٌ واحدةٌ انفصلتْ إلى نصفين.

على فخديْ فاطمة تعلّمتُ لأوّل مرّة كيف أتعرى من كلّ التّحفظات، كيف أتخفّف منها. أتعرى تماماً وأدقّق النّظر في

كلّ تفاصيل حياتي. تعلّمت الكلام بصراحة مطلقة لم أعهدها في نفسي من قبل، فحتّى مع ذاتي لم أكن بهذه الصّراحة المطلقة. إلاّ في لحظات نادرة جدّاً سابقة معكِ يا فاطمة.

(كنتُ عائداً من المقهى، والوقت آخر المساء. افترقتُ عن عبد السّلام الكرفطي أمام باب المقهى. ودّعته على وعد اللّقاء به غداً في نفس السّاعة. نكرّر جلستنا المعتادة المشبعة بتشارك كلّ شيء. بعدَ فراقه بقليل أحسستُ بخطى تقترب منّي. تُسرع فيزداد صوتُ طقطقات أحذيتها على الأرض. تزداد في إيقاع متسارع، ثمّ تخفُت حين تقترب منّي أكثر.

- ألَن تحكِّم عَقْلَكَ؟

- ألاَ تفكّر في مصير أسرتك... وفاطمة ألن تكترث لمعاناتها بعدك؟

لم أستطع أن أدير وجهي جهةَ مصدر الصّوت، فقد كان الرّعب قد اجتاحني. لم أرد أن أدير وجهي. طمأنتُ نفسي أنّ الأمر مجرّد تهيآت راجعة إلى ما كنت أسمعه من صديقي من كثرة المضايقات الّتي يتعرّض لها كثير من النّاس، من المخبرين السّريّين ومن الفرق الخاصّة بالاعتقالات.

حين تشجّعتُ قليلاً أدَرْتُ وجهي. لم يكن أحد يسير ورائي، لكنَّ رَجُلين كانَا يسيران عكس اتجاهي. فكّرتُ: لمْ نتقاطع في الطريق، كيف ذلك؟! لمْ أشأ أن أقتنع بأنّهما هما الشّخصان اللّذان كانا ورائي، وكانت أصوات حذاءيهما تُعلنان أنّ مصيراً سيئاً، ربّما ينتظرني. كانت أحذيتهما تعزف إيقاع الاعتقال.

لم أكن أصارح نفسي بأنّ أمور حياتي قد تؤول إلى سوء. هكذا كنت أجاري نفسي وأُطمئِنُها في جلساتي الفرديّة معها.

تماماً كما كان رفيقيّ عبد السّلام الكرفتي ومراد التّازي يفعلان مع بعضهما البعض، في جلساتنا المشتركة الّتي كان تأثيرها على النّفس عميقا وبليغا. تتداعى التّطمينات، كأنّ كلّ واحد منهما يحاول أن يُطَمئِنَ ذاته بصوت مسموع. لكنّ حلمهما بغد أفضل قريب، كان بمثابة السّلوى التي يخفّفان بها عن نفسيهما، حين يشتدّ الخناق، ويخفّفان بها عن نفسي أنا أيضا، وإن كنت لست مثلهما منخرطاً في الحزب، وملتزماً بنضالاته وقراراته. لكنّ جميعنا لم نكن نظنّ أنّ الطّريق إلى المعتقل أقرب من الطّريق إلى حياة الحرّيّة. لكنّ كم من طريق حرّيّةٍ لا تمرّ إلاّ عبر المعتقل؟!

كلّ واحد من صديقيَّ كان يعتقد أنّ الاعتقال قريبٌ منه، ليس أبعد من أنفاسه. لكنّ الاختطاف لم يكن وارداً على بال أحد. أن يعتقل الإنسان أياماً أو شهوراً، أو حتّى سنوات، أهون بكثيرٍ من أن يختطف ويُقبَر في الحياة بدون إعلان وفاة ولا جنازة ولا إكرام، ودون أن يُعرف عنه شيء، لا المصير ولا المحيا.

(فاطمة تحكي)

بينما كنتَ تعيش على إيقاع الألم، كنتُ أتجرّع طعم الفقدان، وطعم الحيرة، وعدم معرفة مصيركَ. فتّشت في جميع الأماكن الّتي من الممكن أن تكون بها، سواء راضياً أو مكرهاً. سألتُ جميع الأصدقاء والمعارف، من كنتَ تعرفه مَعرفَةً وثيقةً، ومن كنتَ تعرفه دون أن يعرفني. في عينيَّ سكنتْ علامات الحيرة والفقدان، إلاّ أنّ بريقاً من الأمل كان يشعّ من حين إلى آخر. وخاصّة حين كنتُ أتذكّر مكاناً من الممكن أن تكون قد مررت منه أو أقمت به، أو أتذكّر على حين غرّة صديقاً

لم أسأله. ألومُ نفسي على عدم تذكّره، وأتحسّر على الوقت الّذي خسرته جرّاء ذلك. فقد كانت ساعات فراقك مضنية وكانت لحظات اللّقاء بيني وبينكَ ساعات لا تنسى ولا تُعوّض من الفرح والغبطة والانشراح، والإمتاع والمؤانسة اللّذيذة.

كانتِ الأجوبة تتّخذ أشكالاً متعدّدةً، بين الجاهل مطلقاً بمصيركَ، وبين الغافل غير المكترث.

بعض المعارف كانوا يُظهرون لهفةً وحزناً. أمّا البعض الآخر فكانت اللّامبالاة هي العلامة الواضحة بسُفُور على محيّاهم؛ في أوقات الأزمات تُعرف مشاعر النّاس وتُمتحن أحاسيسهم تجاهنا. لكنّي كنتُ أتسلّح بالصّبر، فلم تُثْنني الإجابات الصّادمة غير المكترثة عن الاستمرار في البحث عنك.

كانت الإجاباتُ الأكثرُ قسوةً هي الإجابات الّتي تركب مركب الظّنون، فتذهب إلى أنّك قد هاجرتَ خارج الوطن فراراً من واقعك، فراراً منّي أنا ربّما، فكأنّهم يقتنصون الفرصة ليقدّموا أنفسهم بديلاً عنكَ. كانوا يَعرضون أنفسهم كتعويض لي عن فقدانكَ؛ صحيح أنّ جماليَ الأخّاذ، كما كنتَ تقول، كان يسرق أفئدة أكثر معارفِك، وكانوا في بعض أوقات تذمّرهم من رفيقاتهم يغبطونك عليّ، على جماليَ خاصّة، ولو على سبيل التّلميح: (سَعدَاتْ لي تْزوج بالزّينْ...) لكنّهم لم يكونوا مُدركين مقدار إخلاصي وصدقي وأمانتي، كي يغبطُوكَ على ذلك، ويُزيلوا أوهام امتلاكي من عقولهم، ومن قلوبهم المريضة بالأهواء الزّائفة المارقة عن المروءة والشّهامة؛ صحيح في أوقات الشّدائد تَظْهَر النّفوس المريضة من النّفوس الصّافية.

❖ ❖ ❖

ظللتُ أبحث عنكَ طيلةَ أيّام، دون يأس ولا تبرّم. سألتُ عنك جميع المعارف، إلاّ أنّ لا أحد عرف لكَ طريقاً، أو خيطاً وحيداً كان يصل إلى حدّ واحد... قال صديقكَ عبد السلام إنّكما افترقتما عند باب المقهى، توادعتما كما تفعلان عادة، وتواعدتما على اللّقاء في الغد، في نفس المكان والزّمان.

قال النّادل نفس الكلام: رأيتُه وهو يودّع عبد السلام، ومشى كلّ واحد منهما في طريقه.

قالاَ إنّك ذلك المساء كنتَ طبيعيّاً، مثل عادتك، ولم يكن في حديثكما شيء يزيد أو يقصر عن أحاديثكما في الأيّام العاديّة، فقد أصبح يوم اختفائك يوماً غير عاديّ. زاد النّادل أنّ رواد المقهى، في ذلك المساء، كانُوا تقريباً هم الرّواد الدّائمون، ولم يكن هنالك زبون يبعث على الرّيبة. (ترى أين ذهبتَ يا حبيبي في ذلك المساء بعد جلسة المقهى؟ ترى إلى أين اقتادوك؟)

فكّر عبد السلام بأنّه علينا أن نسلك نفس المسار الّذي يسلكه عادة، وأن نسأل أصحاب المحلّات الّتي على الطّريق، علّهم رأوا ما يريب. إلاّ أنّ جوابهم كان واحداً، كأنّهم اتّفقوا عليه، أو كأنّ أحدهم قد حفّظهم نفسَ الجملة: (لم نر شيئا). فقد كان هذا الزّمن زمن (لاأرى. لاأسمع، لاأعرف)؛ زمن الخوف من كلّ شيء. حتّى أنّ الكثيرين كانوا يدخلون إلى بيوتهم باكراً ويغلقون الأبواب، خوفاً من شيء مجهول، لا يعرفونه بالتّحديد؛ إلاّ أنّ الخوف كان يلج معهم بيوتهم ويلاحقهم. الخوفُ كان يسكنهم باستمرار.

فتّشنا معاً. منفردين مرّات، ومجتمعين مرّات أخرى، في جميع الأماكن الّتي من الممكن أنْ تكون فيها: في أقسام الشّرطة، ومستشفى المدينة. لم نكتف باستفسار مكتب

الاستقبال، بل فتّشنا جميع الأقسام والغرف، حتّى غرف قسم الولادة جُبتُها دون أن أنتبه للأمر؛ فما الذي سيفعله رجلٌ في ذلك القسم المخصّص للنساء؟! لكن دون جدوى، لا خبر يطفئ نيران البحث.

شَارَكَنا الجميعُ في البحث، أمّكَ وإخوتُك في مدينة طنجة، بحثوا هم أيضاً هناك، وسألوا جميع أُسَر العائلة في مدن الشّمال الأخرى. فحصلوا على نفس نتيجتنا، أيْ لم يحصلوا على شيء. فلا أحد يعرف مصيركَ.

بعد شهرين، بدأ اليأس يدبّ في القلب. يَكبُر كما يكبر جنينكَ في بطني. جاءَت أمّك للسّكن معي، لكي نواسي بعضنا. قالت لي إنّ قلبها كان يعلم بأنَّ هذا سيحصل، فلطالما حذَّرتك من «المخْزن»: (المخزن مَامْعَاهْ مْزَاحْ، وَانْتَ مَا عَنْدَكْ تَاوَحَد).

(لكنّ رأسه كان صلباً منذ طفولته، ولم يكن يريد أن يضع رأسه بين الرّؤوس، ويعيش في سلام كما يعيش معظم النّاس. في نهاية الدّراسة الإعداديّة، تغيّر كثيراً، أصبح يعود إلى البيت وعيناه تشعّان بريقاً خاصّاً، لم أكن أراه في عيون إخوته) تختم أمّك كلامها.

❖ ❖ ❖

يئسنا من العثور عليكَ ميّتاً، لكنّنا لم نيأس من العثور عليكَ حيّاً ترزق. فلو كنتَ قد متّ لكانوا قد أتوا بجثّتك إلينا من أجل أن ندفنها، ولن تعوزهم الحجج. سيأتون متحجّجين بأيّ عذر، كأنْ تكون سيارة مسرعة قد صدمتك، أو سقطتَ في حفرة عميقة في الشّارع، أو أيّ سبب آخر يموت النّاس جراءه كلّ يوم، كلّ ساعة، كل لحظة.

(العيش تحت سقف واحد)

العيش مع أمّكَ تحت سقف واحد كان مواساةً حقيقيّة لي، كأنّني عثرتُ على أختي أو على نَفسِيَ الأخرى، الّتي تفهمني دون أن أتكلّم وتتعاطف مع معاناتي دون أن أبوح بها، فهي كانت معاناتها أيضاً، وربّما معاناتها كانت مضاعفة لمعاناتي، رغم أنّك كنتَ بالنّسبة لي الزّوج والأب الّذي أسند عليه ظهري حين تُتعبني هموم الحياة، وأظنّني كنتُ بالنّسبة لك الزّوجة والأمّ أيضا.

دون اتّفاق مسبق تناوبنا، أمّك وأنا، على الطّبخ، وأحياناً تشاركنا في إعداده. بينما الأمور واللّوازم الأخرى صارت من اختصاصي. قُضي هذا الأمرُ دون تفاوض ودون أيّ نقاش. صار كأنّه هو الطّبيعة الّتي يجب أن تكون عليها الأمور.

يَفتح أحدنا موضوعَنا الدّائم والمعتاد، ونتشارك في إطلاق التّنهيدات الّتي تخرج متوالية دون توقّف، إلى أن تُكفْكِفَ إحدانا دموعَ الأخرى، وتختمها بأنّ اللّه سيفرّج الكربة عَمّا قريب، فلا بدّ من وجود جواب لكلّ هذه الأسئلة مهما طال الزّمن. فالفَاعل لن يستطيع التّملّص من الجواب إلى ما لانهاية. حتماً سيحتاج إلى مصارحتنا بالجواب كي يستريح هو أيضا قبل أن نستريح نحن.

أتى إخوتك وأخواتك، عثمان وسكينة وخديجة وحنان، لزيارتنا بين الفينة والأخرى. تقاسموا معنا نفس التّنهيدات، بنفس الولع والاشتياق والحيرة أمام ما لم يكن في حسبان أحدٍ منهم.

❖ ❖ ❖

أتت أمي أيضاً في الأشهر الأخيرة من المخاض للعيش معنا. عواطفها لم تكن تسمح لها بأن تترك فلذة كبدها تتحمّل مشاقَّ اختفاء الزّوج وعسير الولادة بعيداً عنها. أمضت اللّيالي السّابقة في تَقَلُّب وتَقَطُّع نُعَاسٍ لم تعرفه يوماً. لم تكن تستطيع أن تأتي قَبلَ اليوم نظراً لرعايتها لإخواني الصّغار الّذين كانوا يتابعون دراساتهم في مستويات تعليميّة مختلفة.

أتتْ لتتقاسَم معنا كلّ شيء، عذاب الانتظار وألم الولادة وشظف العيش الّذي بدأ يُهدّدنا، بعد أن شارفت المساعدات التي قدّمتها لنا كلّ العائلة، القريب منها والبعيد، على النّفاذ، خاصّة وأن الكلّ لم يكن ميسور الحال، وأغلب الأسر كانت تتدبّر شؤونها يوماً بيوم. أما مساعدات رفاقك والّتي حملها لي صديقك عبد السلام وأخذتها منه على مضض، بعدما أصرّ على ذلك إصرارا كبيراً، فقد أسرّ لي حين جاء للسّؤال عن منتهى البحث عنك بعد أسبوع، أنّ همّة الرفاق قد ضَعُفَتْ في جمع مساعدات أخرى، خاصّة أن تلك المساعدات مهما عظمت فهي تصبح لا شيء تقريبا أمام عدد المختفين، وأن الأمر بدأ يزداد تعقيداً، فمعظم النّاس بدأوا يتخوّفون من التّبرع أمام وجود مضايقات من شتّى الصّنوف والأنواع. وباختصار فقد ضاقت حولهم دوائر التّهديد والتّضييق.

وللحقيقة فلولا اضطراري الماديّ واضطرابي الوجدانيّ والنفسيّ، ولولا الضّغط الكبير لعبد السلام لرفضت منذ البداية أية مساعدة، فهي لم تكن من حقّنا ما دمتَ لم تكن منتمياً للحزب إيّاه ومنخرطاً معه.

(صامد يرى النور)

مرّت الولادة بسلام. رُزقنا بابن جميل. اختارتْ له أمّك اسم (صامد).

لم نناقش مسألة الاسم من قبل. لمّا نطقتْ به أمّك لم يتحدّث أيّ أحد منّا، لا مُوافقاً ولا رَافضاً، ولا بأيّ موقف آخر. ولأوّل مرّة اكتشفتُ أنّ أمّك تُضمر أحاسيس الاستماتة والتّحدي، كأنّها تُغيض المخزَن (السّلطات) بذلك. تُوصل له رسالة أنّ النّضال مازال مستمرّاً وأنّ المعركة لم تنته بعد. وأنّك لم يقض خبرك أبداً، وسيظلّ صمودك وحُلمك مستمّراً عبر ابنك.

حين قصدت المقاطعة لتسجيله، قالوا لها إنّ هذا الاسم مرفوض، وإنّ عليها أن تختار اسماً آخر. كأنّه يقصد ألا وجود لهذا المعنى في هذه البلاد. لكنّها تشبّثت بالاسم وهدّدتهم بالفضيحة: (ألا يكفي أنّكم حرمتوني من أبيه؟ أتريدون أن تختاروا أنتم أيضاً أسماء مواليدنا؟ أتستعبدوننا أنتم بعد أن حرَّرْنا أنفسنا من غيركم؟ إنّهم كانوا رحماء أكثر منكم بنا.) فلم يكن من قائد المقاطعة سوى أن جرّها من جلبابها وأدخلها إلى مكتبه ثمّ أمر «الشّاوش» بأن يأتي بالموظّف المكلّف بتسجيل أسماء المواليد:

– سجّل اسمَ ولد هذه السّيدة.

وهي تغادر سمعتْه يُجلجل بصوته: (لكنّي أُحذّرك من ارتفاع عدد مثل هذه الأسماء في السّجل... ألا تعرف سياسة سيرْ وَاجِي».. لا ترفض صراحة وإنّما ماطل وتحجّج بأيّ أمر، إلى أن يتعبوا ويفهموا الأمر من تلقاء أنفسهم.)

خرجتْ للّأمينَة من المعركة رابحةً، مرفوعة الرّأس. كأنّها حقّقت انتصاراً من نوع خاصّ. انتصاراً معنويّاً، ستتذكّره كلَّمَا نادت على حفيدها باسمه.

كان أوّل ما فعلته حين دخلت البيتَ هو إطلاق زغرودة. وأهدتْ انتصارها هذا لكلّ النّسوة الحاضرات. قالت لهنّ إنّها تخلّصت من خوفها. فهذا المولود وهبَها شجاعة لا توصف. من أجل البحث عن ولدها. كأنّها وجدت محفّزاً إضافيّاً لمواصلة البحث. فلم يعد الأمر مقتصراً على حاجة الأم لابنها، والزّوجة لبَعلها، بل تجاوز ذلك إلى حاجة الابن إلى أبيه.

(فاطمة وصامد)

لم أكن أزداد إلاّ إصراراً على الصّمود والنّضال. وكان اسم وليدنا صَامِدٌ يزيدني إصراراً على ذلك، كأنّي أصبحت امرأة أخرى، لا تشبه، إلاّ في تفاصيل صغيرة، تلك المرأة الّتي كانت قبل اختفائكَ.

صار تذكّركَ يزداد بصورة كبيرة في كلّ الأوقات. كأنّ الأمر أصبح شبه تنظيم لليوم، تماماً كما تفعل الصّلاة. صار تذكّركَ وذكركَ خمس مرات في اليوم شبيهاً بالصّلاة. هذا عدا تذكُّركَ في غير أوقات الصّلاة بالدّعاء لك.

أتذكّر أيّامي السّالفة معك، وكيف أنّ صلابتك في دفاعك عن الحقّ وعدم مهادنتك في ذلك، وتوتّر أعصابك كلّما تذكرت حال المقهورين على هذه الأرض سواء في مشارقها البعيدة أو مغاربها القريبة، كانت تتحوّل معي إلى لطف لا يطاق؛ لطف لا يطاق من شدّة حنوِّه. لطف مخجل، عصيّ مواجهته والتّعامل معه والعيش فيه.

كنتُ أقول لك: (ألا تعرف معاملة أخرى معي غير هذه؟! إنّ معاملتكَ لي بهذه الطريقة تجعلني خجلة من نفسي. أتحاشى، بل وأخاف خوفاً شديداً من أن أخدشك ولو خدشاً غير مقصود... أخاف أن أسيئَ إليكَ حتّى بالقدر البسيط... أنا رهينة للُطفِكَ اللّامتناهي.)

فكّرتُ أن أجرّب أن أقول لكَ في غيابك: (أنت لست رجلاً مثل كلّ الرّجال. لم لا تَدَعْنا نتخاصم قليلاً، ثمّ نعود إلى بعضنا، بعدَ دعوات الرّضى والأوبة إلى ما كنّا عليه من تَحْنَانٍ؟) (دعني أوبِّخُك قليلاً أو كثيراً. دعني أغضب منك قليلاً. ادفعني إلى تجريب الغيرة عليكَ. دعني أجرّب ألاعيبَ النّساء معك.) علَّ ردّاً مختلفاً يأتيني منكَ.

إلاّ أنّ شيئاً من هذا لم يحدث. ظلَلْتَ صامداً بلطفكَ وحنانكَ اللّامتناهي رغم متغيّرات الحياة.

نعم أعرف قدركَ الآن بمقدار ما يعرفه الآخرون، وأكثر. لأني أعرفُ وجهك الآخر. وجهَكَ الأُسَريّ المتنوّر في معاملاتك معي ومع أمّك وإخوتك. فهذه الكلماَت لم تكن مجرد كلمات بالنّسبة لك لتسويقها خارج الأسرة. بل كنت تطبّقها باعتبارك راعٍ. أليس كل راع مسؤول عن رعيته؟ لقد كنت نعْمَ الرّاعي، ترعَانا بدون أن تحسِّسَنا بذلك. بِدُون أن تُشعِرَنا بأَنّنا رعيتك، وهنا مكمن المحبّة ونكران الذّات.

❖ ❖ ❖

رغم كلّ قناعتي بصدق اختيارك وبصوابه وبقدسية ما كنت تخوض فيه، إلاّ أنّني أقول ليتكَ كنتَ معي الآن، ترعاني بحنانكَ ولطفكَ. ليت ابنَنَا تمتّع برؤيتك وبحنان كفّكَ وبعطفكَ. هل كان سينقص وجود الابن قليلاً من لطفك تجاهي؟! هل كان صامد سيأخذ قليلاً من اهتمامك بي؟

أحسُّ، بل متيقّنة أنّ العكس هو ما كان سيحصل. كان فرحُك سيزداد وأملُكَ سيكبر به. كنتَ سترى فيه نفسَكَ وأنت تُولد من جديد. ترى دماءك تتجدّد وتسري في أنساغ فتيّة لا نهاية لها. آه لو كنتَ معي الآن تُنصت إلى صرخاته الأولى، ولُثُغَاته وحَبْوِه! لكنّ وجود أمّكَ معي خفّف عنّي الكثير من العناء. وحملَ عنّي الكثير من الهموم. على الأقلّ وجدتُ من تكون لي أذناً منصتةً ومُرجِعَة لآهات فراقِكَ وأوجاع الولادة. فمن سيكون لكَ أُذُناً مُنصِتَة في كلّ حين، في ذلك الوقت وفي تلك الظروف؟! فكلُّ مُنصت يُعتبر جَانياً ومذنباً ومشاركا إنْ صدرتْ عنه نأمةٌ أو آهَةٌ تحسّرٍ، أو تنهيدةُ تضامنٍ.

أمّا الكلماتُ فلم يكن أحدٌ يجرؤ على النّطق بها.

لقد كان وجود أمّك بجانبي مُعيناً كبيراً لي على الاستمرار على قَيْدِ الأمل. مروياتُ أمّك عن طفولتك وفترة مُراهقتكَ زادتني معرفة بشخصيّتك. صحيح أنّك حكيتَ لي الكثير عن طفولتك وما تلاها، إلا أنّ الأمر، طبعاً، كان من زاوية ذاتيّة تحتاج إلى مرويات من زاوية خارجيّة كي تكتمل الصّورة، فكم من لحظات فارقة في طفولتنا ومراهقتنا لم نُعرها اهتماماً، بينما هي عند الآخر نقطة فارقة مميّزة؟! وكم من الأحداث بقيتْ راسخةً في أذهاننا رغم أنّها لا تشكّل عند الآخرين شيئاً يذكَر؟!

روتْ لي حادثة احتراقك بزيت قَلْي حلوى «الشّباكيّة» الّتي كانت تعدّ بمناسبة شهر رمضان، الّذي كان يتزامن في تلك الأعوام مع شهور الصّيف، وكيف أنّ السّبب كان رهان شخصين على مسألة ختانك من عدمها. أتَيَا إلى الدّار يُسارعان الخطى من أجل قطع الشّكّ باليقين، وما أن فُتِح الباب حتّى سارعَا

إلى الإمساك بكَ من أجل الكشف عن عُضوك الصّغير، الّذي لم يكن يستره سوى تبان متهلهل. وما أن فَهمتَ أنتَ أنّهما يتحدّثان عن مسألة ختانك، والتي كانت بالمصادفة قريبةً، حتّى فككتَ نفسكَ منهما، وفررتَ بكلّ ما تحمله رجلاك القصيرتان الضّعيفتان والرّقيقتان من قوّة على العدو من أجل الاختباء. ركَلْتَ دون أن تنتبه طرف مقلاة الزّيت برجلكَ، فارتفع الزّيت المغلي مطرطِشاً كلّ رِجليْك وجانباً من ظَهركَ.

كانت معاناة الأب والأم بهذا المصاب معاناة كبيرة سبّبت لهما ألماً كبيراً لم يندمل باندمال الحروق التي جرّبا، للتّخفيف من آلامها ومن آثارها، الطّرق التقليديّة والطّرق الحديثة.

كشفت هذه الواقعة جزْءاً من رهانات الكبار الخاسرة من أجل قتل الوقت فيما لا يعنيهم. وتلصّصهم على أخبار النّاس، أفراحهم وأتراحهم ومناسباتهم الخاصّة.

المرويات الكثيرة الّتي غلّفت طفولتك الأولى في تلك البادية، قبل الرّحيل إلى مدينة العرائش كانت أمّك ترويها لي مختتمة إيّاها بـ (هذا ما كان). أمّا ما سيكون فلم يكن يعلمه أحدٌ غير الله.

ألم يكن ما عشته في طفولتك جزءاً مشكّلا لما أنتَ عليه الآن؟

كانت تنشئتك في تلك القرية قد عرّفتك على ظلم القيّاد، بسياستهم ومعاملتهم غير المتكافئة تجاه النّاس. فلم تكن تنعم إلا جهات مخصوصة بالرّعاية والاهتمام، بينما الباقية متروكة للمصير المجهول. تُرك الناس فيها يتأرجحون على خطوط الفقر، متشبّثين بالحدّ الأدنى من العيش كي لا يسقطوا موتى. بقوا في الخط الفاصل بين الموت والحياة. قريباً منه

تماماً. متروكين للتّشبث بالحياة الّتي كثيراً ما تخون. بعدَ أن تُركَت أقاليم كثيرة في أيدي قيّاد لا همَّ لهم إلاّ جمع الثّروات وإرسالها إلى المركز. هناك ذقتَ الحكرة وذقت ويلات الإهمال مع زملائك من التّلاميذ القلّة الّذين تمكّنوا من الصّمود وألهم اللّه ذويهم الصّبر. آملين بمستقبل آخر مختلف.

(لا تصالح)

الحاصل

لم أستطع أن أتصالح مع ذاتي بسهولة. وُلِدَ ابني وأنا لا أعرف أيّ شيء عنه. وُلِدَ كأنّه يتيم، حتّى وضعيّة اليتيم كانت أفضل، بل كلّ وضعيّة كانت أفضل من الوضعيّة الّتي كان عليها. اليتيم، على الأقلّ، لن يجد أمّه في حالة من الذّهول. ستعرف ما تقوله له بقَلْبها، منذ النّظرة الأولى ستقول له إنّها، هي وحدها، الأب والأمّ وكلّ شيء في الحياة. سيقرأ في عَيْنَيْها الامتلاء بعد أن غادرها الحزن. ستُقنع نفسها أنّ اللّه أعطاها هذا المولود تعويضاً عن الزّوج الضّائع إلى الأبد. أمّا في حالتي، ماذا ستقول؟! سيقرأ الطّفل في عينيها الانتظار: (انتظر يا ولدي، فأبوك سيأتي يوما ما لكي يحملك بين ذراعيه، سيعوّضك عن الحنان الذي افتقدته في لَيلَتك الأولى، وسيعوّضني عن اللّيالي الّتي افتقدتُ فيها حنانَه، وَنظراتِه الّتي كنت أقرأ فيها وعوداً بمستقبل أأمن وأفضل وأهنأ وأكثر إنسانيّة.)

هل كان بالإمكان أن أربأ بنفسي وبأسرتي عن كلّ هذا الضّياع الّذي عشناه؟!

لكن كيف كنتُ سأفعل ذلك، وأنا لم أكن أفعل شيئاً يستحقّ هذا المصير سوى صداقتي مع مُتحمسيْن للتّغيير، لم يجر لهما شيء في النّهاية.

(لا شيء تغيّر)

(تجري الكثير من الأحداث في الخارج.)

هكذا كان ظنُّنَا ونحن قابعون بين ممرٍّ وقبو مظلم تحت الأرض، دون أن نعرف شيئاً... وفي الأخير اكتشفنا أنّ لا شيء يتغيّر بتلك السّرعة. كلّ شيء بقيَ على حاله، يسير بإيقاعه الطّبيعيّ. سوانَا نحن، الّذين عشنا الحياة بإيقاع مضاعف في رتابته. كلّ ما حدث كان مكرّراً كلّ يوم بنفس الطّريقة والأسلوب، والزّمن بالنّسبة لنا كان متوقّفاً لا يبرح مكانه. هي سرمديّة ثقيلة لا تتزحزح من ثقلها.

كلّ شيء ظننتُ أنه قد تغيّر وبدّل جلده إلاّ أنتِ يا فاطمة.

(فاطمة تسكن في البال)

هل كنتُ أتذكّركِ في السّجن يا فاطمة؟ لم تفارقي بالي؛ تذكرتُك في اللّحظات الأولى الأكثر قسوة على النّفس، حيث الإنسان لا يعبأ في الغالب إلاّ بنجاته هو. وقلّبت كلّ الاحتمالات. جميعها وبسرعة قصوى، حتّى لم يبق أيّ احتمال آخر سوى ما يتوالد من احتمالات صغرى ظلّت تتناسل في الرّأس كفطريات سامّة طيلة مدّة إقامتي هناك.

قلتُ إنّه ربّما تمّ اختطافكِ أنت أيضاً، وإنّكِ في معتقل آخر

خاصّ بالنّساء، لا يبعد عن هذا المكان إلاّ بخطوات قليلة. وقلتُ إنّك تبحثين عنّي كالمجنونة الّتي لا تدري ما تفعله. تبحثين في كلّ الأماكن الّتي من الممكن أن أكون قد وصلتُ إليها حيّاً أو جثة هامدة لا روحَ فيها. وهل أنا إنسان حيّ أم جثة ماتت روحها ولم يتبق منها إلاّ الحركة الارتدادية للأطراف؟!

قلتُ إنّهم ربّما سلّموكِ جثّة مشوّهة وغير ظاهرة الملامح، وأوهموك أنّها جثّتي بعد حادثة ما، بعد حريق، على سبيل المثال. قلتُ إنّهم ربّما هجموا عليك في البيت. خرّبوا الأثاث وكلّ ما طالته أيديهم وأرجلهم، وطالبوك بعدم مغادرة البيت إلاّ بعد أن يأتيك منهم إِذْنٌ.

خطرتْ لي كلّ هذه الاحتمالات وتمنَّيْتُ أقلَّهَا سوءاً بالنِّسبة لكِ.

كانت كلّ هذه الاحتمالات تمور داخلي، لكنّي لم أحادث بها أحداً، ولا أحد منّا حدّث الآخر عمّن تركهم في الخارج. الكلّ تكتَّم عن ذلك في بداية الأمر. هل كان ذلك مصادفة أم أنّه شعور إنسانيّ مع كلّ الغرباء؟

صحيح كنّا غرباء عن بعضنا البعض رغم أنّ الألم كان المشترك بيننا. لم أنتبه إلى أمرٍ أنّنا في غرفتنا لم نكن نعرف بعضنا البعض ولم نلتق أبداً، أين أصدقائي الآخرون؟ أم أنّهم لم يُعتقلوا أبداً؟! أم تراهم في غرف أو في معتقلات أخرى؟ أم ترى أنّني المعتقل الوحيد؟ أم أنهم يتعمّدون تفريقنا حتى لا ننسِّق فيما بيننا؟ أو على الأقلّ حتى لا نُواسي بعضنا البعض، ولا يضمّد أحدنا جراح الآخر. وَضْعُنا مجتمعين كان سيشكِّل مواساةً حقيقيّة، وهذا ما لا يريدونه. يريدون مضاعفة عزلتنا؛ عزلة عن الخارج، وعزلة وريبة وشكّ في الدّاخل.

لذلك لم نتحدّث، في البداية، إلاّ في عموميات تافهة. كلام لا يخرج من القلب أو العقل، كلام روتينيّ تلقائيّ لا يفضي إلى أمر. ربّما لأنّ البعض كان مشغولاً بالقضايَا العامّة، ولم تكن تشغله المسائل الخاصّة. الكثير من الرّجال كان يعتبر الكلام في هذه الأخيرة أنانيّة أمام ما يعيشه النّاس من أزمات، فلم يتعوّد حتّى في سراحه الحديثَ عن خصوصيّاته ومشاكله وهواجسه وأحلامه الخاصّة. الكثير منا كان مشغولا فيما بدا في الظاهر بالخلاص الجماعيّ، أكثر من انشغاله بالخلاص الفرديّ.

لكنّ الأحاديث العادية تنمحي، وتصبح معادة وغير مستساغة وآلية لا تفضي إلى أحاديث أخرى أكثر دفئا وإنسانيّة، وربّما كان شكّنا في بعضنا البعض، في البداية، سبباً لهذا.

(كوابيس المعتقل)

في بعض اللّيالي كان ينتابني حلم. نفس الحلم، بنفس تفاصيله الدّقيقة ونفس أحاسيس الخوف والرّهبة... (في طريق عودتي إلى البيت خطواتٌ تتبعني وتتعقّبُني. خطى تقترب منّي، تُسرع فتزداد طَقْطَقَةُ أحذيتها على الأرض. تزداد في إيقاع متسارع. ثم تخفُت حين تقترب منّي أكثر.

- ألن تحكّم عقلك؟؟

- ألا تفكّر في مصير أسرتك... وفاطمة ألن تكترث لمعاناتها بعدكَ؟!)

ثمّ لا أستيقظ، لا مفزوعاً ولا مرعوباً من هذا الحلم. أستمرّ في نومي كأنّ شيئاً لم يحدث. أستغرب عدم استيقاظي

مفزوعاً ومرعوباً واستمراري في النّوم. بل وتذكّري للحلم في الصَّباح.

(آه يا فاطمة! خيرٌ أنّهم لم يعرفوا أنّك كنت تحملين نطفة في بطنك، نطفة عمرها أسابيع لا أكثر. تُرَى كَم عمرها الآن؟ هل صارت جنيناً أم أجهضت بفعل الفواجع والكوارث التي حَاقَتْ بكِ بسببي؟ بل بسبب هذه البلاد الظالمة أهلها.) كلّ صباح تقريباً كنتُ أحرّر هذا الهاجس داخلي.

(العودة إلى صامد)

لم يكن الطّفل يريد أن يتركني، كان ملتصقاً بي خوفاً -ربّما- من فراق جديد، وتعويضاً عن فراق شهوره الأولى. تعويضاً عن التّعرّف المتأخّر على أنفاس الأب. كيف احتملتِ كلّ هذا يا فاطمة؟! كيف احتملتِ أوجاع الحمل والوضعِ وأوجاع فراقي دفعةً واحدة؟!

يمرّ يومكِ وأنت من وجع إلى آخر. وجعان متّصلان. ولا سبيل إلى التخلّص من أحدهما. وجعان يستوي فيهما الفقد والولادة؛ الحياة وفقدانها.

كم أنا مدين لك يا فاطمة على صبرك على فقداني، فلم تفقدي عقلك، وأنا أعرف أنّهم حاولوا أن يوصلوك إلى الجنون بكلّ ما استطاعوا من حقد وكراهية دون أن يتمكّنوا من ذلك. ممتّن لك على الحياة الأخرى الّتي منحتني إيّاها بهذا الوليد، الّذي أحسنتم اختيار اسمه، ليكون دالاً وراسماً لمسار حياتيّ لا يعرف المهادنة مع كارهي سعادة النّاس. أُولئكَ الّذين يحاولون جهدَهم تحويلها إلى قطعة من الجحيم الأرضيّ.

كانت نظرات الطّفل وبريق عينيه يمنحاني كلّ ما أريد من هذه الحياة. كنتُ أرى نصراً في لمعانهما. تماماً كما كنتُ أجد في حضنك ملاذاً آمناً لا يدخله الخوف من أمام ولا من خلف. لقد كنتما السَلْوى طيلة أيّامي الأولى.

(ارتياد الحياة)

كانت أغنيات السّراح والانعتاق والحرّيّة بجميع اللّغات واللّهجات تنطبق عليّ تماما. ظَللتُ أسترجعها مراراً، لحناً وكلماتٍ، رجعاً وصدى لا ينتهي.

كنتُ كعصفور فعلاً، بلا ريش وبلا أجنحة، لكنّه يرغب بشدّة في التّحليق والطّيران أكثر ممّا تسمح به طاقته وقوّة أجنحته. والأدهى أنّني لم أعرف إلى أين أذهب ولا إلى أين أتّجه؛ هل أخرج إلى الشّارع أم أبقى داخل البيت؟ وإذا خرجت، إلى أين سأتّجه أوّلاً؟ لا بدّ من تفكير عاطفيّ وعقليّ عميق. فالوجهة الأولى تحدّد الوجهات التّالية وتحسمها.

لم أفكّر بتاتاً في أن أذهب إلى المقهى الذي اعتدت الجلوس فيه مع رفيقيّ عبد السلام ومراد. قلتُ في نفسي: حتماً إنه مقهى مُراقَب، وفي أيّة لحظة يمكن أن يعيدوا اختطافي، فقد أحسستُ من خلال تجربتي أنّني مجرّد ريشة تسبح في الفضاء بالنّسبة لهم.

فكّرتُ في أن أخرج وأن أتجوّل قليلاً في الحيّ، لكنّي فكّرتُ في كمّ الأسئلة الّتي سيواجهني بها الجيران، وإن لم يتجرّؤوا على ذلك فلعلّ نظراتهم ستخترقني بسِياطها السّائلة المتسائلة عن سبب الاختفاء. ولم الرّجوع بهذه الطريقة دون إعلانٍ

قبليٍّ؟ ولا بدّ أنّهم عرفوا أنّ سبب الاختفاء «سياسيٌّ» بمعنى من المعاني. وكلّ واحدٍ يعطي لهذه الكلمة معنى خاصّاً به، لكن ربّما يتجاهلون، عن خَوْفٍ، وجودي وظهوري، بينما عيونهم ستختلس النّظر وتخترقني إلى الأعماق وتفي بالغرض.

كان الاحتمالُ الأخير سيؤثّر كثيراً على نفسيّتي. فمعناه أنّهم استطاعوا ترهيب النّاس من الاقتراب منّا، وبالتّالي سيكون مصيرنا العزلة القاتلة. السّجن أفضل منها في جميع الأحوال، فأن يعيش الإنسان مسجوناً بين الجدران أفضل من أن يعيش سجيناً وهو بين النّاس.

في كثير من الأحيان أخال أنّ ما مرّ من الزّمن سنوات وليس شهوراً فقط. أتساءل كم من الأحداث مرّت في غيابي؛ هل تحوّلَ النّاس؟ هل تغيّرتْ أحوالهم؟ هل زاد خوفهم أو زال أم بقي بنفس المقدار، يعايشونه كما عشته معهم بلا زيادة ولا نقصان؟ من سيخبرني بذلك غيركِ يا فاطمة وغيركِ يا أمّي وغيركما يا رفيقيّ عبد السلام ومراد؟!

فكرتُ في أن تذهب فاطمة إلى المقهى، وتسأل عن عبد السلام، فهي تعرفه من أيام البحث عنّي وعرفت معدنه الأصيل، وعن مراد التازي. هل مازالا يجيئان إلى المقهى؟ أم اختفيا مثلي؟ هل ظهر لهما أثر الآن؟ إن وجدتهما تخبرهما بإطلاق سراحي، وتعرف ردّة فعلهما ممّا حدث. أو أن تسأل عن صاحب المقهى حمّاد وتستقصي منه كلّ الأخبار، وتترك عنده خبري. لكنّي تراجعتُ عن طلب هذا من فاطمة.

الأخبارُ الّتي عرفتُها من فاطمة قليلة، فهي لم تلتق بأحد منذ أسابيع البحث الأولى، وبعدها انشغلتْ عن الجميع بالحمل والولادة.

استقرّ رأيي أخيراً أن تقوم فاطمة والطّفل وأنا بجولة قصيرة في وسط المدينة. أستنشق فيها قليلاً من أنفاس الحياة. أستعيد بها ما فقدته من قدرة سَلِسَة على الحركة والمشي.

فتحنا الباب، وما أن وطئت قدمانا العتبة، حتى لاحظتُ ما خمّنت فيه. النّاس يتحاشون النّظر إلى عينيّ مباشرة. يُنزلون عيونهم أو يُزيغونها بعيداً، كأنّني لا أعرفهم، كأنّي لم أقض بينهم الجزء الأكبر من حياتي. كأنّي لستُ جارهم الّذي تعوّدوا أن يبادروه بالتّحيّة. تفهّمتُ ذلك. بدأتُ أتحاشى النّظر في عيونهم كي لا أُحرِجَهم، فهُمّ على كلّ حال خائفون. والأمر فوق طاقة استيعابهم واحتمالهم النّفسيّة. لقد تعوّدوا أن يحيّوا ويرفعوا القبّعات للمنتصر وأن يتنكّروا للمنهزم، وأنا منهزم على أيّة حال، حالي وجسدي ومِشيَتي كلّها تدلّ على ذلك. وحدها نَظراتي الّتي تقول العكس، وهم يتحاشون النّظر إليها، فكيف يعرفون أنّني لستُ بالمنهزم الّذي يظنّون. وحتّى إن لم أَعُد فقد كنتُ سأظلّ نصلاً في خاصرة من اختطفني.

(زيارة صديقيّ)

لم تمض إلا أيّام معدودات، حتّى جاء صديقاي إلى البيت. طرقَ أحدهما الباب باحتشام شديد. فتحتُ الباب فوجدتهما أمامي. لم أدر كيف أتصرّف. بقيتُ واجماً، وابتسامة رضى وسعادة وفرح تنطلق من وجهي. كأنّي خرجتُ اليوم من ذلك المكان السجن وليس قبل أيّام. كأنّنا واقفون في باب المعتقل، وَهُما في استقبالي. كانت فرحتي غامرة. دعوتُهما إلى الدّخول بعد أن تدافعا إلى السّلام عليّ. رحّبتْ بهما فاطمة أيضاً. طالت جلستنا إلى قبيل منتصف الليل بقليل. أنصتُّ إليهما أكثر ممّا حكيتُ أنا.

بعد يومين وجدتُ قدميّ تقوداني إلى المقهى.

كان حمّاد صاحب المقهى في كرسيّه المعتاد، قبالة الباب. قام وضمّني كما يضمّ الأب ابنه... لم أنتظر منه كلّ هذه الحفاوة والاستقبال، ولم أتخيّل أنّه يُكِنُّ لي كلّ هذه المحبة وهذا التّقدير. لم تغيّر مدّة غيابي منه شيئاً، (هكذا كنتُ أقول في نفسي، مستنداً على الزّمن النّفسيّ القاسيّ الّذي طال واستحال عندي إلى زمن طبيعيٍ ممتدّ لا تنتهي)، بنفس قسمات الوجه، بنفس الملابس تقريباً. نظيفة وقشيبة كما لو أنّه يمتلك بدلات كثيرة من نفس اللّون والشّكل. لم يتغيّر في المقهى شيء تماماً كما لم يتغيّر في النادل شيء.

بدأتُ أتردّد على المقهى بين اليوم والآخر. أتردّد على نفس الأماكن. ونفس ركن المقهى مع نفس صديقيّ عبد السلام ومراد. لم أسألهما: لماذا أنا دونهما من زجّ به في ذلك المكان. فقد كنتُ قَدَرِيّاً أُومِنُ أنّ القدر يتصرّف كما يشاء ويريد. كان السّؤال سيكون محرجاً للجميع، ولي أنا تحديداً، كأنّني سأشكّك في ذمتهما وأمانتهما. استكنت إلى فكرة الاعتقال الخاطئ العشوائي أو الانتقائي. وربّما أنّهم كانوا يريدون ترهيب الآخرين بي، وهذا ما كان.

تجدّدتْ وسَرَت في دمائي النّقاشات الّتي طبعت حياتي السّابقة قبل تجربة الاعتقال؛ نفس النّقاشات ونفس الخلاصات، لا شيء جديد في الأمر. كلا الطّرفين يبارح مكانه بالنّسبة للآخر. الحزب يرى أنّ المخْزن لم يغيّر شيئاً من سياساته السّابقة، وبالمقابل نظرة المخْزن لم تتغيّر تجاه الحزب، فهو بالنّسبة له ذلك العدوّ الّذي يريد أن ينازعه الحكم، وأن يتقاسمه معه. فكلّ واحد كان يشكّل بالنّسبة للآخر الجانب

الأسود في الحياة. لكن كثيراً من النّاس من هم خارج هذا السياق تغيّروا.

بعد لحظات الحماس الأولى، ألفيتُ نفسي غير متفاعل مع النّقاشات. صرتُ أميل إلى الصّمت والإنصات أكثر مما كنت من قبلُ. ربّما لكون هذا الكلام أصبح بالنّسبة لي مكرّراً لا يؤدي إلى أيّة نتيجة، وأن الزّمن يمرّ. والحياة تمضي، ولا صفاء ولا طمأنينة يهنأ بها الإنسان في حياته. ولربّما أن الشهور التسعة لهولها، ووطأتها، وقسوتها النّفسيّة، بدت لي زمناً طويلاً جدّاً يقتضي أن تتصرّف سنن التّغيير في الأرض، وأنَّ لا شيء حدث من هذا. لكنّني لم أتجرّأ أن أصارح صديقيّ بهذا الأمر، أو أن أعرض وجهة نظري. خفتُ أن يُظنّ أنّ شهور الاعتقال قد أثّرت فيّ وأضعفت عزيمتي وكسرت شوكتي. خفتُ أكثر أن يُظنّ بأنّ السّجّانَ قد تمكّن منّي وغَسَل دماغي، واستطاع أن يقنعني بوجهات نظره في أمور البلاد، فالتزمت الصّمت. وعلى الرّغم من محاولات صديقيّ، وخاصّة عبد السلام حثّي على إعادة الحديث عن المعتقل ومُنغّصاته، إلا أنّني كنت أعيد نفس الكلام تقريباً بدون أيّة زيادات وبدون أيّة مبالغات أو محاولات رسم صورة بطوليّة عنّي، مطلقاً العنان لخيالي في ابتكار أساليب وأعاجيب التّعذيب الخفيّ الصّامت، كما فعل الكثيرون.

وفي الأخير وبعد ضغط كبير، وكي لا أحرجهم، كنتُ أحدّثهم عن التّوربيّون، وعن أحلامه وسيره ليلاً دون أن يدعس أحداً على الرّغم من ضيق المكان، وعن يْكِنْ وعليّ الخباز ومحكيّات المؤنسة.

لم يكن يستهويني أن أكون بطلاً في عيون أحد وخاصّة

فـي عيونهمـا، فكنـتُ أقـول لهمـا: (مـا حـدث لـي كان يمكـن أن يحـدث لأيّ واحـد آخـر، وهـم لـم يختاروني لكونـي كنـتُ الأقـوى أو الأخطـر، وإنّمـا سـوء حظـي هـو الـذي قادهـم إلـيّ، وهـم لـم يكونـوا يحتاجـون فـي تلـك الفتـرة إلا إلـى نمـاذج لإرهـاب الباقـين وترويـع أسـرهم، وإنّ الاعتقـالات كانـت عشـوائية ليـس إلا.)

لعـلّ هـذا كان يزيدهمـا احترامـاً وتقديـراً لـي. وأنـا طبعـاً لـم أكـن أكـذب فـي هـذا، فلـم نُعـذّب ولـم يُنـكّل بنـا، وكان التّعذيـب الواحـد الّـذي ألحقـوه بنـا هـو التّعذيـب النفسـي بتركنـا كسـقط المتـاع فـي الدّنيـا، وعـدم التّواصـل معنـا أو توجيـه لنـا أيّ كلام. كنّـا كالمنسـيّين، وفـي كلّ يـوم كان يمـرّ، وفـي كلّ مـرّة كان يتأخّـر الحـارس فـي إدخـال الطّعـام لنـا، كنّـا نقـول: (هـذه نهايتنـا وقضـي الأمـر... لقـد تركونـا للنّسـيان وبئـس المصيـر، سـنصير بعـد مـدّة ترابـا. والأمـرّ هـو أنهـم لـن يحتاجـوا إلـى حفـر قبـور لنـا، فالقبـو يكفينـا جميعـاً. كلّ مـا يحتاجونـه هـو طمرنـا بالتـراب، فيتحـول القبـو إلـى مقبـرة جماعيـة لـن يتـم اكتشـافها إلا بعـد سـنوات وسـنوات.) ولعـلّ هـذا التّعذيـب كان أشـدّ وقعـاً علـى نفسـيّتنا، فلـم تمنـح لنـا فرصـة للتّعبيـر عـن أنفسـنا، أو فرصـة للمواجهـة. كانـت عزيمتنـا تذبـل يومـاً بعـد يـوم وقِوَانَـا تخـرّ دون مواجهـة أو صـراع.

كَانَـا ينصتـان إلـى حكايـة التّوربيّـون باهتمـام شـديد، ويحـاولان أن يتعرّفـا عليـه مـن خـلال ملامحـه وأوصافـه، لكـن لا أحـد اسـتطاع أن يجـزم بأمـر، فأغلـب الظـن أنـه جـيء بـه مـن مدينـة بعيـدة، فهـم كانـوا يتقصّـدون عـدم وضـع معتقلـين مـن منطقـة قريبـة حتـى لا يتـمّ أيّ تنسـيق أو تعـارف، وحتّـى لا تكـون أيّـة ثقـة بـين المعتقلـين، فشـكّ المعتقلـين فـي بعضهـم البعـض هـو السـبيل الوحيـد لضمـان اختطـاف هـادئ بـلا ضجيـج، اختطـاف يؤدي مفعولـه.

كان رفاق عبد السّلام ومراد قد قاموا بتجميع لوائح للمعتقلين، وتمّ إرسالها إلى المقر المركزي، غير أنّه كان يتمّ الاحتفاظ بها وتجميعها، دون تبادلها مع الفروع الأخرى، فقد كانت الفروع تعيش في شبه جزر مقطوعة عن بعضها البعض. هذا ما أكّده عبد السلام.

كان الحديث عن الاعتقال والاختطاف والمحاكمات الموجّهة جزءاً من خطاب صديقيّ عبد السلام ومراد شِبْه اليوميّ. وكانت الأطروحات والمقاربات تراوح مكانها، الأمور إمّا بيضاء كالثلج أو سوداء جدّا. غير أنّ الجديد هو بدء مطالبة الحزب للدّولة بإرجاع المختطفين إلى عملهم، وتعويضهم عن سنوات الاختطاف، لكن دون أي صدى لذلك. والأخطر أن الدولة لم تعترف بأيّ اختطاف بالنّسبة للكثيرين. كانت تعترف فقط بمن قامت باعتقالهم وقدّمتهم إلى محاكمات علنية. أمّا الذين تمّ اختطافهم وتركهم للنّسيان، ثم أطلق سراحهم، فلا شأن لها به، ولم تعترف به.

لم يكن أمامي من خيار سوى أن أجرّب حظي وحيداً، مفردا، فمادامت السّلطة لا تعترف بمسألة اختطافي معناه أنّ سجلي سليم، ولا غبار عليه سوى غبار النّسيان والصّمت.

ربّ ذرة نافعة. فلولا هذا الخبر ما كنت فكّرتُ في أمر طلب العودة من جديد إلى العمل.

(عودة ثانية إلى الحياة)

عدتُ إلى الحياة، لكنّي لم أعد إلى ذاتي.

كانت الأفكار تتماوج بالأحاسيس وتصبح زبداً لا يبين. كانت

القناعات السّابقة تكاد أن تتحوّل إلى فقاعات منفجرة في الوجدان بعد أن كبرت وتضخّمت أكثر مما يجب، وبعد أن أحسست أنَّ دفء العائلة وحنان الزّوجة وعطف الأمّ أهمّ من كلّ شيء. وخاصّة من نِضال لم تكن خططه واضحة، ولا أهدافه متوافق عليها مَن طرف الجميع.

(العمل)

لم أعد أجد أيّة رغبة داخلي في الاتّصال المستمر بصديقيّ عبد السلام ومراد، أو سماع مُساجَلاتهما التّنظيريّة، ولا حديثهما عن التّغيير. كأنّ باعثا داخليّاً أضحى يكبح هذه الرّغبة.

انكففتُ على ذاتي، بعد أن قمتُ بمحاولات عديدة للعودة إلى العمل. لم تقدّم لي نيابة التّعليم أيّة معلومات سوى أن اسمي لم يعد وارداً لديها في لوائح العاملين. فقد تمّ التّشطيب عليّ بعد تغيّبي عن العمل، بعد انقضاء شهرين على تغيّبي. وكان ممكناً معالجة هذا الأمر لو لم تتجاوز مدّة الغياب هذه المهلة. أمّا وقد تعدّت التسعة أشهر، فلا سبيل لمعالجة هذا الأمر في نطاق المديريّة، إذ أصبح من اختصاص الوزارة.

كانت العاصمة الرباط في ذلك الوقت كمدينة لغز، مخيف ومغلق على خباياه؛ الدّاخل إلى دهاليزها الإداريّة مفقود والخارج منها مولود. وأنا كنت مفقوداً من أساسي، فما الّذي أخاف من حدوثه، لا شيء أخسره. أنا مفقود في كلّ الأحوال.

- ماذا تريد؟ قال الحارس.

- أريد أن أقابل المسؤول عن شؤون الموظفين.

– ما رقم تأجيرك؟

– 45000

فتّش في ملف كبير يضم أرقام الأجراء حسب النّيابات. ثم قال:

– لا يوجد هذا الرّقم في سجل الأجراء.

تجهّمتُ وظهرتْ عليّ علامات الكدر واليأس. لكنّي لم أشأ أن أفصح عن الحقيقة كلّها للحارس. فنصفها يكفي للتّعريف بحالتي:

– لقد تغيّبتُ عن العمل لظروف المرض مدة تسعة أشهر. وجئتُ أبحث عن حلّ من أجل إرجاعي إلى العمل. ظهر على الحارس تعاطف مع حالتي:

– ولمَ لَمْ تقدّم للإدارة شهادة طبّيّة بهذا الأمر؟ قال.

– لم تكن حالتي الصّحيّة تسمح بذلك. أجبتُ باقتضاب.

– لا يمكنني أن أسمح لك بالدّخول. لكنّي سأساعدك. انتظر هنا قرب الباب، وحين سأرى مدير شؤون الموظفين قدْ أقبَلَ، سأومئ لك برأسي كي تحدِّثه عن مشكلتك، فإن سمح لك بالدّخول معه ستُحلّ مشكلتك بإذن الله.

شكرتُ الحارس بإيماءة وابتسامة. ووقفتُ أنتظر على جنب.

بعد دقائق قليلة أومأ إليّ الحارس برأسه، ونبّهني بعينيه جهة سيّارة تُركَن في مربض السيارات. أخمد السّائق محرّكها، ثم خرج منها. من هيئته الأنيقة عرفتُ أنّه صاحب «قضيّتي». انتظرتُ إلى أن اقترب. استوقَفَتْه نظراتي البائسة اليائسة. وهممْتُ بأن أخبره بقصتي: (لقد انقطعتُ عن العمل وأريد

أن أعود إليه.) قلتُ له في شبه استكانة. لم يتفوّه بأيّة كلمة. فقط نظرة تستزيد الشّرح والكلام.

(انقطعتُ بفعل مرض ألزمني الانحشار في القاعِ مغيَّباً بشكل لاإرادي عن العالم.) أردفتُ.

قال:(أيّ مادّة كنتَ تدرِّس؟) صاغ السّؤال بطريقة، كأنّ إجابتي عنه هي الّتي ستحسم في المسألة. قلت: (الفيزياء والرياضيات.)

قال:(اتبعني. سأرى إن كنت أستطيع أن أفعل لك شيئا.)

كانت الوزارة تعرف خصاصاً مهولا في أساتذة هاتين المادتين.

تَبعتُه. سلّمني إلى مدير ديوانه قائلا له: (ابحث في أمره ثم أخبرني).

لم يطرح مدير الدّيوان أسئلة كثيرة. اكتفى بأن طلب مني اسمي ورقم تأجيري والمديرية الّتي اشتغلتُ بها قبل انقطاعي. ثمّ طلب منّي أن أنتظر خارجاً إلى أن ينادي عليّ. انتظرتُ وطال انتظاري حتى حسبتُ أنّ المدير قد نسيَ أمري. أو أنّه استدعى من سيعودون بي إلى حيث كنتُ مدة تسعة شهور.

واسترجعتْ ذاكرتي صوت الخطوات وطَقْطَقَة الأحذية الّتي كانت تتعقّبني.

أحسستُ بيدٍ توقظني، وتنبّهني للاستيقاظ من غفوتي. كانت يد الشَّاوش وهو يطلب منّي أن أدخل إلى المدير.

تفضّل. اجلس. جلستُ بغير استواء. جلسةَ من لا تعرف حياته استواء ولا ترتيباً ولا اطمئناناً.

(سنحل مشكلتك بحول الله. فشواهدك الدّراسية ووثائق

عملك ما زالت نسخ منها محفوظة في الأرشيف.) ارتسمت على محياي ابتسامة.

(...ومادة تخصّصك فيها خصاص في الوزارة.)

هززت رأسي في شبه اطمئنان. ثم أردف: (فقط عليك أن تذهب عند طبيب. وتستخرج منه رخصة مرضيّة للمدّة التي تغيّبتَ خلالها.) أحسستُ بسرور وغبطة غير أنّ حرقةً أصابتني في مقتل، (حتّى الموظفين الّذين من المفروض أن يقوموا بالحرص على تطبيق القانون. هم من يقدّمون خططاً للتّحايل عليه.) من تولى شؤوننا هو من يخرق القانون ويساعد على خرقه. كيف يطلبُ منّي أن أستخرج شهادة طبّيّة بسهولة وعفويّة كأنّه يطلب مني أن أستخرج وثيقة عادية من مقاطعة الحيّ.

إنّ هذه البلاد لن تعرف استقامة أبداً. وكيف لها ذلك ومن يتولى حماية القانون هو أول من يخرقه حين يريد ذلك. ويتشبّث به ويُشهرَه ضدّكَ حين يشاء هو ذلك؟!

(اذهب إلى نيابة تطوان. وستتسلم هناك ورقة تعيينك، لكن اعلم أنّك سكون غير مرسّم لمدّة. وستعيّنكَ المديرية حيثما تشاء.)

شكرتُه بشدّة، غير أنّه بدا غير مكترث بشكري. فمثل هذه المشكلات جعلت منه مجرّد موظف فاقد للأحاسيس تجاه المتعاملين معه.

خرجتُ من الوزارة لا ألوي على شيء. قصدتُ المحطة الطّرقيّة. ملتفتاً بين خطوات وأخرى إلى الطّريق عسى سيارة أجرة تمر فتقلّني بسرعة إلى المحطة. كانت لهفتي كبيرة

للعودة إلى تطوان لأخبر فاطمة وأمّانَا بأنّ جزْءاً من مشكلتي قد حلّ. فأنا سأعود إلى العمل... إلى عمل أحببته وشقيت في طفولتي وشبابي في الدّراسة من أجل الحصول عليه.

❖ ❖ ❖

استقبلاني بلهفة فاقت لهفتي. حكيتُ لهما ما حصل. لم يصدّقا الأمر. غير أنّهما حاولاَ إخفاء شعورهما حتى لا يضايقاني.

بعد أسبوع، وقفتُ قرب باب مدير الموارد البشرية بنيابة تطوان. أنتظر مع المنتظرين. لمّا حان دوري أحسستُ بارتباك كبير. لم يتمكّن لساني شرحَ كلّ ما حدث. كلّ ما استطعت أن أقوله هو أنّني موظّف جديد، ومن المفروض أن تكون ورقة تعييني قد وصلتْ من الرّباط. وما أن سمع الرّباط حتى همّ الموظّف يفتّش بين ملف يضمّ عدّة أوراق.

- ((ذكّرني باسمك)) قال.

- ((**أنا** .....)).

أخرج ورقة. وقال لي: (لقد وصلت البارحة.) ألف مبروك!

يبدو أنّه قد تذكّر زيارتي الأولى له. وكيف أنّه لم يجد اسمي في لوائح الموظفين. وكيف أنّه بعد أسبوع فقط. يتم توظيفي. وهذا يدل أنّ لدي «ضِلْعَة قوّيّة» في الرباط. فرحتُ في داخلي أنّه فهم الأمر على هذا النحو. فهكذا سأتقي شرّه مستقبلاً.

(سأعيّنك في ثانوية القاضي ابن العربي للتعليم الأصيل.) قال، منتظرا أن يسمع رأيي في هذا. لكن لم يكن أمامي إلا الصّمت. الصّمت الدال على الرّضى والموافقة. فأردف: (بعد غد يمكنك أن تلتحق بعملك ستجد ورقة تعيينك عند المدير.)

لـم يعـد الأمـر محـض تخيّـل أو تمـن. لقـد عـدتُ إلـى العمـل. بتيسـير مـن القَـادر علـى كلّ شـيء. إذ يبـدو أنّ ملفـي لـم يتجـاوز تسـويده ملـف الأجهـزة السّـرّيّة، بينمـا الإدارات الأخـرى لـم أكـن بالنّسـبة لهـا سـوى مواطـن عـاديّ. وهـذا مـا يفسّـر تعاملهـا الطبيعـيّ معـي.

مـرّت شـهور بـين البيـت والعمـل. بـين التّلاميـذ وفاطمـة وصامـد وأمـي. حتّـى الجرائـد لـم تكـن لـي رغبـة فـي اقتنائهـا وتصفّحهـا، أنـا الّـذي كنـتُ مولعـا بذلـك، ولا يكتمـل نهـاري إلاّ باقتنـاء وتصفّـح جريـدة أو جريدتـين. أمّـا التلفـاز فتحـوّل فـي البيـت إلـى أثـاث جامـد لا حركـة فيـه ولا روح. لا أحـد يشـغله. (البـاب الـذي يأتيـك منـه الريـح أغلقـه واسـترح.) خصوصـاً إذا كانـت تلـك الريـح تحمـل لواعـج الماضـي الأليـم. لا تفتـح نوافـذ القلـب علـى مـا يحزنـه ويُتخمـه بالهمـوم.

صـرتُ تائهـاً لا أعـرف مـا أفعلـه، ولا أدري مـا أفعلـه بنفسـي. أُصبـح أحيانـاً غاضبـاً ناقمـاً علـى حالهـا.

كتومـاً صـرتُ مـع فاطمـة. لـم أخبرهـا بـأيّ شـيء ممّـا يـدور فـي ذهنـي مـن احتمـالات ورغبـات وهواجـس، كـي لا أُثقِـل عليهـا؛ لكـن أليسـتْ وطـأة الصّمـت أحيانـا أقـوى؟!

أنسـى كلّ المشـاكل حـين ألـج البيـت. لـم أرد أن أعيّشـها فـي الجـوّ القـاتم الـذي كنـت أعيـش فيـه. كنـتُ أُشـعرُها أنّ الحيـاة فـي الخـارج ليسـت قاتمـة ولا كالحـة، وأن الأمـل موجـود ويسـكن فـي مـكان مـا قريـب منّـا. ينتظـر فقـط زيارتنـا لـه، وأن نطـرق بابـه، فكانـت فاطمـة حضنـي الّـذي لا أريـد لأيّ مكـروه أن يعكّـر صفـوه ويحـوّل دفـأه إلـى صقيـع.

لكنّهـا الحيـرةُ الّتـي تسـكن الإنسـان وتجعلـه مكبّـلاً إلـى أغـلال

ثقيلة تستحيل معها الحركة. مجرّد حركة بسيطة كنت عاجزاً على القيام بها. حتّى الدّوران على نفسي، كما يقال، كنتُ عاجزاً عن الإتيان به. هو الجمود المطلق الّذي يشبه الموت المطلق. الموت الّذي ما بعده حياة وما بعده انبعاث.

أقولُ إنّ العالم كلّه تائه الآن. كلّ النّاس على هذه الأرض تائهون لا يعرفون ما يقدّمون وما يؤخّرون سوى ما يقدّمه القَدَر لهم، وأنا ما قدّمه القدر لي كان سيئاً جدّاً، لا يعاش. وهذا ما يقدَّم لأغلب النّاس إلا قلّة قليلة جدّاً.

أجلسُ في البهو متأمِّلاً الأشياءَ من حولي دون أن أتملى في الوَاقِع أيّ شيء. حتّى ذاتي كنت عاجزاً على تملِّيها. وكيف ذلكَ والرّؤية والأدوات الّتي من الممكن أن أقيس بها هذا الواقع اختلطتْ عليّ ولا أملك منها على سبيل اليقين أيّ شيء؟ وحدَها الصُّور الشّخصيّة تقول كلّ شيء ببساطة ووضوح. وتسمّي الأشياء بمسمياتها المعلومة والظّاهرة. كانت الموسيقى بالنّسبة لي، ومنذ زمان، هي الصّمت؛ الصّمت الّذي يجعلك تنصت لموسيقى ذاتك بدون ضجيج وبدون مُرافَقات موسيقيّة مؤثِّرة.

أعود إلى ذاتي، إلى ماضي، فالذّات هي الماضي وليس غيره. لا حاضر ولا مستقبل.

أسترجع طفولتي في مدينة العرائش ثم في طنجة حيثُ كانت تُقيم جدّتي. أسترجعُ خُطواتي في «هَبْطَة البْلايَا» (منحدَر البحر)، والّذي يؤدّي من المدينة العالية إلى البحر. كنتُ أختصر طنجة في شارع فاس، فالبُولْفَار، ثمّ شارع الحرّيّة، فالسّوق دْبَرَا (السّوق الخارجي) ثم ليَ الاختيار إمّا أن أنحدر إلى هبطة الشّاطئ أو ألج المدينة القديمة وصولاً

إلى السّوق الدّاخل، ثمّ إلى السّقالة وصولاً إلى الميناء. أمضي شهورَ الصَّيف في هذا المسار، لا أخرج عنه. مسار مبهج ضاجٌّ بالحياة والسّحنات المختلفة، وباللّغات المتنوّعة، حتّى تلك اللّغات الّتي لم يُسمع حرف منها في جلِّ مدن المغرب، حتّى في العاصمة؛ كان النّاس يَصِلُونَ من مختلف بقاع الدّنيا إلى طنجة عبر مينائها، ويعودون لمغادرتها عبر نفس الميناء.

(البحث عن السّكينة)

أغلقتُ أنا وأسرتي كلّ نوافذ الخارج. وانخرطنا في نحيب داخلي لا يعلم بأمره أحد. نبحثُ عن صفاء فُقِدَ، وعن جدوى في خوض حياة خبَا نبضها. كانت فاطمة تحاول ما أمكنها أن تُشعل فيّ الرّغبة في الحياة من جديد، لكن دون فائدة.

لم أجد ذلك الشّعاع الّذي يقود الإنسان في الحياة. ذلك الأملَ الّذي يحيى من أجله. وتلك البذرة الّتي تحيا داخله، وتجعله حريصاً على أن تنمو ولا تموت فيه. ولم أكن أجد السَلوى في شيء سوى في الأذكار الّتي لم تبرح ذاكرتي. كان الورد النّاصريّ والصّلاة المَشيشيَّة، وباقي الأوراد اللّيليّة والنّهاريّة مؤنساً لي في يومي. أتلوها حتّى أَغيب. يتلوها معي جماعة أسمع أصواتهم وحدي، وأراهم وحدي، إلى أن وجدتُ نفسي ذات مغْرب مقوداً إلى الزّاوية القادريّة بحيّ باب المقابر. لم أفكّر بالأَمر ولا قرّرته ولا شاورتُ فيه عقلي أو فاطمة. انخرطتُ في جماعة «الطُلْبَة»، في ركن انزويتُ فيه. كان قلبي يرتّل معهم ما كانوا منخرطين فيه من الذّكر:(... اللّهمّ صلِّ على منْ منْه انشقَّت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقتِ الحقائق، وتنزَّلتْ علومُ سيّدنا آدم عليه السلام فأعجزَ

الخلائق، وله تضاءَلت الفُهُوم فلم يُدركه منّا سابق ولا لاحق. فرياض الملكوت بزَهرِ جماله مُونقَة، وحياضُ الجبروت بفَيض أنواره متدفّقة، ولا شَيء إلا وهو به مَنُوط، إذ لولا الواسطة لذَهَبَ كما قيلَ الموسُوط. صلاةً تليق بكَ منكَ إليه كمَا هو أَهْلُه. اللّهم إنّه سرّك الجامعُ الدّال عليكَ، وحجابُكَ الأعظمُ القائم لكَ بين يديك. اَللهم ألحقني بنسبه، وحقِّقني بحسَبه، وعرّفني إيّاه معرفةً أسلمُ بها من موارد الجهل، وأكرعُ بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك، حملاً محفوفاً بنصرتك... واجعلِ الحجابَ الأعظمَ حياةَ رُوحي، وروحَه سرَّ حقيقتي، وحقيقته جامعَ عوالمي، بتحقيق الحقّ الأوّل. يا أولُ يا آخرُ يا ظاهرُ، يا باطنُ، اسمعْ ندائي بما سمعتَ به نداء عَبدك سيّدنا زكريا عليه السلام، وانْصُرني بكَ لك، وأيّدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحُلْ بيني وبين غيرك. اللّه، اللّه، اللّه، إنّ الّذي فرضَ عليكَ القرآن لرَادُّك إلى مَعَاد، ربَّنا آتنَا من لَدُنْك رحمةً وهيّء لنَا من أمرنا رَشَداً. ربَّنَا آتنَا من لَدُنكَ رحمةً وهيّء لنَا من أمرنَا رَشَداً. ربّنا آتنّا من لَدُنكَ رحمةً وهيّء لنَا من أَمرنَا رشداً. إنّ اللّه وملائكته يُصلُّون على النّبيّ. يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً.)

ثمّ بدأ لساني يلهج معهم، إلى أن ارتفعتْ روحي، وانفصلتْ عن جسدي، لأغيبَ بعدها وأنا واقف خشوعاً لتعظيم الرّسول الكريم. واقف، لكن بدون إحساس بقدميّ اللّتين تحملاني، حتّى أنّي لم أحسّ بأنّي أمشي في الطّريق بين الزّاوية وبين بيتي. شعرتُ أنّي أطير، أسبح، أغوص في ذاتي. أرقص وأحبو في ملكوت خَبرتُ ذبذباته تسري في شراييني الرّقيقة، وأنا ابن الرّابعة، حين وعيتُ بالوالد يقيم مع كلّ عيد مولد

نبوي حضرةً يستدعي لها خَاصّةً من الطّلبة و«المحَاضْرِيَّة» وأهل الذّكر.

كان دَورُه يصادف دوماً عيد المولد النبوي، فكنتُ «أسكر بذكر الحبيب مدامة من قبل أن يخلق الكرم»؛ من قبل أن تخلق الحروف في لساني.

أخبرتني أمّي بأنّي كنتُ أغيبُ مع نهاية كلّ حَضْرَة، كأنّني مسكون بالأوراد، وفي دمي كريات من دماء الأولياء أو المجاذيب.

في سنّ السّابعة بدأ أبي يأخذني معه إلى الحَضْرَات الأخرى، الّتي تقام في بيوت أصحابه ممّن هم منخرطون في تلك النّوبَة.

الحناجر لا تفتر عن ذكر اللّه، في مجالس محفوفة بالوداعة وتطهير النّفس. لا نميمةَ ولا غيبة. ماء الورد تُعطّر به الأكفّ. وكؤوس الشّاي ترطّب به الحلوق وتمنحها صفاء الصّوت.

غير أنّي في سن الثّالثة عشرة ستشغلني كأيّ ولد يمرّ بفترة مراهقة، تحوّلات جسدي، وتخيلاته ومواجعه ولذائذه المتوهّمة، حتّى أنّ الجسد يمحي أحوال الرّوح وانشغالاتها.

عادت الأوراد إلى مكامنها. وأصبحتُ مسكوناً بأحوال البلاد وبتقدّمها، وبأحوال مُواطنيها. وجدتُ نفسي منخرطاً، ولو بحماس الخَجُول، غير المحبّ للظّهور، في النّقاشات بين الأصدقاء دون تزعّم.

كان للفظة الشّعب تأثير كبير على أحاسيسي. كانت تشعرني بالحماسة المفرطة. حماسة متوثّبة للتّضحية بكلّ شيء. كانت اللّفظة تخطف روحي منّي ولا تعود إليّ إلاّ حينَ كنتُ أراكِ يا

فاطمة، فأشتهي بناء مستقبل مشترك معك تحت سقف بيت يجمعنا؛ منذ البداية تخيّلتُك زوجة حبيبة، حتّى دون أن أتحدّث معك، أو أعرف رأيك في الأمر، أو أختبر أحاسيسك تجاهي. لم أر فيكِ عشيقة أو حبيبة عابرة، انجرافاً مع متطلّبات السنّ، ومع ما تَفرِضُه المنافسة مع الأقران، والمفاخرة بينهم، والّتي تشتعل حروبها في هدأة اللّيل.

❖ ❖ ❖

وصلتُ إلى البيت كالمجذوب، كالمغمى عليه. يستيقظ ثمّ يسهو. بين سهو وصحو تلقّفتني يد فاطمة. لم تسألني عن شيء، بعد أن استطلعتْ من تمتماتي كلمتيْ «الزّاوية» و«الحضره». فهمتْ منهما أنّني قادم من هناك. مدّدتني على السّرير ودثّرتني، ولم أصحُ بعدها إلاّ مع آذان الفجر.

(أذكار الزّاوية)

مضت شهورٌ من العمل بسرعة قصوى. أحسستُ فيها بانتعاش خاصّ يغشى حياتي. لم أحتج فيها إلى تحميس نفسي وتزويدها بجرعات الشّجاعة والصّبر، كما أفعل عادة حينما ألج القسم للتّدريس، حتّى أنّ شغب التّلاميذ استحال إلى وداعة ظاهرة. لم أحتج معها إلى إخراسهم ودفعهم إلى الهدوء بالتّرغيب ولا بالتّهديد. صاروا وديعين بقدرة قادر، إلى أن جاء الحارس العامّ، ليستفسر عن الهرج والمرج الصّادر من فصلي، والّذي جعل أحد الزّملاء الّذين يشتغلون في الفصل المجاور يشتكي من تأثيره على سير درسه.

فهمتُ أنّني كنتُ مرفوعاً عن الواقع. أسبح في فضاء

معزول عمّا يجري حولي. فهمتُ أنّ تلك الأوراد شكّلت جسماً يعزلني عن الفضاء المحيط بي.

اعتذرتُ للحارس العام. وعُدْتُ لشرح الدّرس للتّلاميذ الّذين استحالوا إلى دمىً خائفة من العقاب.

عدتُ إلى البيت. أخبرتُ فاطمة بما وقع. لم تتفاجأ، بل أخبرتني أنّ هذه هي حالتي في البيت، ومنذ مدّة. فكثيراً ما كانت تنادي عليّ للقدوم من أجل العشاء أو إحضار شيء ما، غير أنّني لا أردّ عليها ولا أنتبه لها، بل كثيراً ما كانت أمامي تسألني عن أمر ما، غير أني لا أردّ. قالت إنّها لم تشأ أن تخبرني بالأمر كي لا تضخّمه، ظنّاً منها أنّ هذه الحالة حالة عابرة وسرعان ما سأعود إلى طبيعتي وتركيزي.

عرفتُ أنّ هذه الحالة أصبحتْ ملازمة لي. لساني لم يعد يفتر عن تلاوة الأذكار والأوراد، فأصبح السَّهْو والغياب الذّهني عمّا حولي دَيْدَني في الحياة.

أصوات تُتلى داخلي وفي مسامعي دون أن أستطيع أن أخرِسَها، بل لم أكن أريد لها ذلك.

كانت الأوراد تُطربني وتملأ روحي بشعور خاصّ جدّاً. صارت الأذكار مخدّريّ الخاصّ الّذي أدمن عليه، ولا رغبة لي في الإقلاع عنه؛ وكيف لي ذلك وهو يرفعني عن واقع كنتُ أتمنى أن يصبح مستساغاً، لكنّه تغلّب عليّ وجعل منّي كائناً يطلب على الأقلّ التّعايش معه؟!

❖ ❖ ❖

لم تضف فاطمة أيّ شيء. ربّما أنّها كانت أكثر علماً منّي بحالي.

أَعْـرِفُ أنّ حالتـي كانـت تسـتلزم، فـي ذلـك الوقـت، زيـارة للطّبيـب. غيـر أنّ فاطمـة لـم تُـرِدْ أن تُلزمنـي بذلـك. ربّمـا قالـت إنّنـي مستريح فـي حالتـي هـذه. والانسـلاخ عـن الواقـع خيـرٌ مـن مجابهتـه والاصطـدام بـه. ثـمّ لـمَ الاصطـدام؟ لـم النّضـال؟ لـمَ الدّفـاع عـن المسـتضعفين والمسـلوبين إن كانـوا هـم غيـر واعـين بحالتهم، وربّمـا هـم مستريحون فـي تلـك الحالـة، ولا يطلبـون من أحـد أن يخرجهـم منهـا؟! لـمَ الدّفـاع عـن أنـاس هـم لا يرغبـون فـي أن يدافعـوا عـن أنفسـهم؟! ثـمّ لـمَ خلقنـا اللّه، أليـس بحثـاً عن السّـكينة، لنعيش فـي سـلام، وهـو الـذي يجـب أن نتشبّث بـه إن عثرنـا عليـه؟!

لهـذا تركتنـي فاطمـة مرتاحـاً فـي حالتـي هـذه، مـادام الأمـر ليـس فيـه تعـدٍ علـى حقـوق أحـد؛ لا اللّه ولا العبـاد ولا البـلاد. ولكـن ليـس ليتّجـاوز الأمـر حـدود البيـت، ويحـدُثَ بـين أنـاس غربـاء؛ لكـن كيـف لـي أن أسـيطر علـى الأمـر، وأجعلـه خاضعـا لإرادتـي أسـتعمله وقتمـا أشـاء وأوقفـه وقتمـا أشـاء؟! كيـف أجعـل تلـك الأصـوات تنطلـق صادحـة حينمـا أريـد وأخرسـها حينمـا أريـد أيضـا.

❖ ❖ ❖

قـرّرتُ ألا أعـود إلـى الزّاويـة مـرّة أخـرى، وأن أكتفـي بقـراءة الأوراد فـي البيـت. غيـر أنّ لذّتهـا محـدودة لا تكتمـل إلا مـع جوقـة مـن الأصـوات التـي تشـرئبّ بأعناقهـا إلـى السّـماء.

وجدتنـي أعـود إلـى الزّاويـة بـدون أيّ تخطيـط مسـبق. كأنّ سـمعي هـو مـن يقودنـي وليـس قدمـيّ. كأنّـي مسـكون بنـداء القلب والوجـدان. أبتغـي ارتـواء مسـتحيلاً لا أَصِلُ إليـه إلاّ وأَجِدُ روحـي كبئـر تَنضُـبُ بعـد حـين.

صارت الزّاوية مأواي من أحداث اليوميّ، الّتي لم أجد فيها سوى مغالطات تتكرّر باطّراد وباستمرار. صرتُ غارقاً في الأوراد أوردها ولا أجد ارتواء.

شعرتْ فاطمة بالمتغيّرات الّتي حاقت بي، غير أنّها لم تتدخّل. فضّلت الصّمت ورؤية صامد يترعرع بين ذراعيها ويملأ حياتها صراخاً وبكاءً وضحكاً. وربّما حمدت اللّه في نفسها أنّ الحياة وهبتها هذه النّعمة لكي تعيش من أجلها. فهي سلاحها لإرجاعي إلى سكّة الحياة العاديّة.

– (انظر إليه. استمع... لقد أصبح نطقه للكلمات فصيحاً)؛ (انظر إلى عينيه، إنهما يشبهان عينيك.) كنتُ أكتفي بأن أُنصت أو أن أرسم على صفحة محياي ابتسامةً بدت لها ملغزة وبلا معنى حقيقيّ. بلا معنى يُشعِرُها باهتمامي بالأمر وبعودتي إلى الحياة، إلى حياتنا المشتركة قبل ما كان.

(كرنفال الرّوح)

لم أكن أدري أن مشهد صعودنا لِمَزَارِ الوليّ الصّالح، سيتحوّل إلى مشهد صباحيّ ومسائيّ يتكرّر باستمرار في شاشة الوجدان. أناس بجلابيب بيضاء، ناصعة البياض بدون شائبة. كأنّ صفحاتهم بيضاء. بياض مشعّ مبهر ومعمّ للّذي في نفسه ذرّة من شكّ أو حسد وحقد، هكذا كان يُشاع. ومَن لم يصدق عليه أن يجرّب. ومن جرّب مرّة زالت أمامه حُجُب الشّقاء إلى الأبد... لكن ما عليه سوى أن يجدّد الحجّ إلى المزار كلّ سنة. تلك حجّة سنويّة على الأقل. ومن جرّبها سنة لن يستطيع أن يُقعده عنها مرض أو عوز أو أيّة حجج حياتيّة واهية.

أصعدُ إلى المزار مرّة... مرات. أصعد إليه دون استراحة في الطّريق، ودون السّير في المنعرجات الجبليّة الصّغيرة الّتي تخفّف من حدّة الصّعود. أفعلُ ذلك كأنّني أعتلي مصعداً يُصعدني إلى المزار. دون استراحة أَصْعَد وحدي، دون رفقة ولا صحبة... هكذا أتخيّل نفسي، زاهداً في كلّ شيء حياتيّ دنيويّ، كأنّه حجّ فرديّ تَوحُّديّ مع الذّات.

أجلسُ تحت ظلّ شجرة الفلّين الضّخمة، وأفترش لوحات من لحائفها. تظلّلني الشّجرة وأفترش جزْءاً منها، وأمامي يتمدّد الأبيض في الجدران، في السّماء، في القلب، في كلّ شيء. تستحيل الدّنيا بكلّ سوادها إلى بياض.

أحتفل بكرنفال الرّوح وحدي، في غفلة من الجميع. أشعرُ براحة واسترخاء لذيذين. أوسّد يدي وأتمدّد على الفلّين. لا أفكّر في شيء. أسبحُ في البياض الّذي ليس قبله شيء. ليس أمامه شيء، ولا بعده شيء.

حين أستيقظُ أتمنّى لو كان البياض قد استمرّ إلى ما لا نهاية. أن يكون الكون قد استحال إلى بياض نهائيّ سديميّ لا عودة بعده. ولا استيقاظ بعده. لا أحد ينادي عليك ولا أنتَ تنادي على أحد.

يُنادي الوليّ الصّالح أن ادخل إلى الضّريح. أدخلُ ولا أخرجُ منه.

(العمل)

تعوّدت الإدارة ومعها التّلاميذ على طريقتي في العمل. سهوٌ كثيرٌ وصحوٌ قليل. ضجيج التّلاميذ الّذي كان يصل إلى

الأقسام الأخرى لم ينفع معه التّنبيه الأول ولا الأخير. ليس بسبب تصلّب في موقفي وعدم رغبتي في الاستجابة لطلبهم. بل لكوني كنتُ مسلوباً ومأخوذاً، لا أملك روحي، حين تبتدئ الأوراد والأذكار تصدح بصوت جماعيّ بدون إعلام مسبق.

لم يرد المدير أن يتّخذ إجراء صارماً في حقّي يحرمني من أجرتي. ربّما قال في نفسه: (كثيرون هم رجال التّعليم في هذا البلد يعانون، ولا يجدون قدرة على ضبط إيقاع تلاميذهم، فيتحوّل القسم إلى ساحات وغى أحياناً وعناق أحياناً أخرى). ثم إنه عرف بما عشته سابقاً، فقد أضحى الخبر مشاعاً بين الجميع، إداريين وأساتذة، بل أصبح الخبر معروفا حتى عند بعض التلاميذ، وكان كلّ واحدٍ يتخيّل أهوال ذلك المكان حسب سعة خياله.

(القيل والقال)

كان القيل والقال يوسّع دائرته، بعد اليوم والآخر. القليل منه هو من تناهى إلى مسامع فاطمة، فهي لم تكن تبحث عنه، تماماً كما كانت تلجم كلّ من تحاول من الجارات أن تخبرها بما حكته الجارة الأخرى، وهكذا كنّ يتبادلن أدوار الحكي فيما بينهن.

كان الفراغ الشّديد والخوف يساعد على انتشار الأخبار المختلَقة، كما يساهم في تصديقها والاستكانة إليها.

أقول في نفسي الآن، ماذا لو متّ هناك، تحت التّراب، دون أن يعرف أحد مصيري. أيّ الحكايات كانت ستَختَلِقُها النّفوس المريضة؟ وكم من حكاية ستؤلّف؟ وكم من لسان سيجد بين

اليوم والآخر ما يشغل به وقته، وكم من فم ستتحرّك فيه مياه الكلام؟ وكم من مخيّلة ستهتاج وتجد ما تنسجه؟!

تسعة أشهر كانت كافية كي ينظر إليكَ الآخر نظرة أخرى مغايرةً. نظرة إلى الآتي من مكان بعيد مختلف؛ نظرة تقول: أنتَ لم تعد تنتمي إلينا. أنت محض سراب آتٍ من الغيب. أنت محض هباء كان مقيماً بيننا، واندثر كأنّه لم يكن هنا في الأصل.

تسعة أشهر بالتّمام والكمال. هل للأمر دلالة ما؟! دلالة على ولادة جديدة ربّما. هل جاء الأمر بشكل اعتباطيّ أم أنه مدروس ومقصود؟! تخمينات لا تجد أيّ صدى لإجابات محدّدة. تساؤلات يقود كلّ واحد منها إلى الآخر في سلسلة متّصلة.

فكرتُ في أن نذهب إلى مدينة لا يعرفنا فيها أحدٌ، أو على الأقلّ إلى حيّ بعيد في هذه المدينة. لكنّني كنتُ أُرجئ الأمر في كلّ مرة، كأنّ باعثاً داخليّاً كان يُقعدني؛ هل هو الخوف من المجهول، من المستقبل، هل هو الخوف من التغيير؟ كأنّه الاستكانة إلى المكان، إلى الوضع نفسه ، هو أقل الأضرار، حتّى لو كان ذلك المكان مليئاً بالخوف لا يستحقّ الإنسان أن يعيش فيه ولو حياة مقتضبة؛ حياة تعاش بتقسيط مخيف. أم أنّني كنت أخشى الخلاص، وأدمنت على عيشة الخوف في عيون الناس؟ أدمنتُ النّظرات الخائفة المضطربة للآخرين. أدمنتُ نظرات الشّك والارتياب في عيونهم. كأنّني كنت أخشى أن أبدأ من جديد. أخشى أن أضع نقطة في سطر من سطور الحياة، وأنتقل إلى سطر آخر جديد.

(دفاتر القبو)

بعد محاولات كثيرة نجحتْ فاطمة في إقناعي بزيارة طبيب نفسيّ، قالتْ: (إنّ الأمر سيكون للاستئناس فقط، ولسنا ملزمين باتباع أيّ علاج.)

ثمّ كسرتْ شوكتي الرّافضة لهذا الأمر بالضّربة القاصمة، حين قالت لي: (إنّك لم تكن تعاني من شيء قبل شهور السّجن، ولا بدّ أن لهذه الأخيرة آثاراً نفسيّة عديدة، تؤثر في الإنسان حتّى لو لم يشأ أن يعترف بها.)

وَعدتها أن أسأل الأصدقاء لعلّهم يعرفون طبيباً مطّلع على الملف، وسبق له أن استمع إلى رُفقاء السِّجن والأقبية في مكان ما. فهذا سيسهِّل عليّ كثيراً الأمر. سيُعفيني من شرح كثير من الأشياء.

خشيتُ أن أتحوّل في نظر أحد إلى مارق خارج عن القانون. الإنسان لا يدري ما يخبئه له الزّمن. من كان يقول إنّي من الممكن أن أعيش تجربة كهذه دون غيري من الأصدقاء الّذين كانت أصواتهم عالية وصادحة من صوتي، أنا الخجول الّذي لا يحبّ الظّهور ولا الزّعامة ولا القّيادة كيفما كانت. لم يكن الطّبيبُ سوى مصطفى الحبيب المعروف. قيل لي إنّه من المناضلين الشّرفاء، ومن المتعاطفين مع قضايا الإنسان، وإنّه فاتح عيادته في طنجة لمثل هذه الحالات. لا يتقاضى أجراً عن ذلك. وإنّه يُنصت معالجاً الكثير من الرّفاق الّذين يأتون إليه بسبب الاعتقال أو بسبب الخوف والرّهاب الّذي حوّل حياة بعضهم إلى كابوس حيّ.

زرتُ عيادة الطبيب مصطفى لمرّات عديدة. استلقيتُ على كرسيّه الطبّيّ. حاولتُ أن أحكي... أن أقولَ أيّ شيء كيفما

كان، حتّى لو كان تافهاً، حتّى لو لم يكن يتعلّق بالماضي... حتّى لو لم يكن يتعلّق بالحاضر أو المستقبل... حتّى لو كان مجرد كلام فارغ بلا معنى... هذا ما حاول الطّبيب أن يحثّني عليه، ويستدرجني إليه، لكن هل لي من حاضر سوى الغياب؟!

دون جدوى، تخرج الكلماتُ: الجملة الأولى... ثمّ لا شيء بعدها يُقال. أصمتُ كأنّني اختصرتُ بتلك الجملة كلّ ما يمكن أن يُباح به، إلى أن يطرح عليّ الطّبيب سؤالاً آخر، فلا أجيبه إلا بما قلّ من الكلمات، وفي كثير من الأحيان يكون الجواب أشبه بسؤال آخر، أو بكلمات لا ارتباط لها بموضوع السّؤال.

بعد زيارات قليلة لطنجة، وجلسات مع الطبيب. قال لي إنّه لا يمكن أن يفعل لي شيئاً ما دمتُ لا أجدُ الرّغبة في الكلام. وإنّ الكلام هو نصف العلاج.

ترك الطبيب لحظات طويلة من الصّمت. لا يقول فيها شيئا. لا يحثّني على أمر، حاول -ربّما- أن يلغيَ وُجودَه، ويُجلسني أمام مرآة تنعكس فيها ذاتي. أحكي لنفسي. أتوقّف عندما أريد وأسترسل في الوقت الّذي أشاء، لكن حتّى هذا التّهديد الطبّيّ المبطّن لم يجدِ نفعاً معي.

بعد يأس، حاولَ الطّبيب طريقةً أخرى للعلاج. طلب منّي أن أكتب كلّ ما يخطر على بالي من كلمات ومن مرويّات وأن أُحضرها له، لنجعلها محوراً للحديث: (عبّر كما شئتَ، حتّى إنْ لم يكن بكلمات واضحة، حتى وإن تجلّت الكلمات من فرط القلق تخطيطات.)

تراكمتْ على مكتبي أوراقٌ عديدةٌ، مسوّدات وتخطيطات بألوان مختلفة بعضها بخطوط مضغوطة كادت تمزّق الورقة، وبعضها

الآخر بخطوط لا تكاد تظهر، كأنّ القلم لم يجد رغبة في التّعبير. رسمتُ خَرَابِيشَ قد لا تعني شيئاً، وقد تعني الشّيء الكثير لمن يعرف تحليل نفسيّات النّاس من خلال تخطيطاتهم.

أكتب وأتوقّف. أجد نفسي جالساً أكتب. متى قرّرت ذلك ومتى بدأته فيه، لست أدري؟

أكتب موقفاً واحداً مرّتين، ثلاثاً. تختلف بعض الأحداث في الفاصلة الّتي اخترتُ أن أبدأ منها، في المقطع الأكثر إيلاماً. الأعمق حفراً في الذّاكرة؛ بعض التّفاصيل أكثر إيلاماً من أخرى.

في بعض الأحيان أبدأ الحكاية من آخرها، من جانبها غير السّارّ طبعاً؛ وهل عرفنا جانباً سارّاً هناك؟! كلّ التّفاصيل مؤلمة، المبتدأ منها والوسط والمنتهى. ولعلّ النّهاية أسوأها. فها أنا الآن أعيش الألم في الحاضر والماضي، في الذّاكرة كما في الواقع. على الأقل قبل الاختطاف، كانت الأحلام مشرعة على أفق لا محدود، على أفق لامتناه من الحلم بحياة جديدة منطلقة، لا على العودة إلى ما كانت عليه حالتنا الأولى.

كان الأصعبُ هو البدء. بعدها تتوالى الكلمات... تتوالى الذّكريات، وتتداعى الأفكار. الكلمات تأخذ الشّكل الذي تختاره... تتداعى بالشّكل الذي تشكّلت به أوّل الأمر، في الحقيقة والوجدان. لكنّي لم أجد أيّ رغبة في مدّ الطبيب بها. قلتُ له إنّني لم أكتب شيئاً:

- (ولا حتّى تخطيطات عشوائيّة؟ !) قال:

- (ولا حتّى تخطيطات عشوائيّة...) أجبتُ.

كانت آخر جلسة لنا.

(كرسيّ مصطفى الحبيب)

تُرى ما الّذي حكاه الآخرون، كم استقبل منهم الطبيب مصطفى الحبيب؟ هل جاؤوا كلّهم إلى هنا، واستلقوا على نفس الأريكة، وحكوا ما عجزتُ أنا عن حكيه؟

لكنّ معاناة كلّ واحد منّا تختلف. قد تتشابه معاناتنا الجسديّة، البرودة القارسة والحرارة الّتي تفتّت العظام ولحم الجسد. الرّوائح الكريهة الّتي تزكم الأنوف. روائح الأجساد التي تقترب من العَفَن، من قلّة النّظافة بسبب قلّة الماء. العرق الّذي يتصبّب أيّام الحرّ المفرط. الأكل الذي يتحجّر في الأمعاء أحياناً. وأحيانا أخرى لا يستقر فيها.

لكن معاناتنا النّفسيّة تختلف لامحالة. كلّ واحد تأثّر تأثّرا يختلف عن تأثّر الآخر، النّفسيّات تختلف. والنّظرة إلى الحياة تختلف، وهذا ما يجعل استحالة اشتراك شخصين في الألم.

(نهاية سنوات التسعينيات وألفية جديدة)

لم أكن وحدي. كنّا عديدين من تعرضوا لما تعرضتُ له. هكذا بدأ الكلام مباحاً يتسلّل إلى النّاس عبر جهاز التّلفاز، والصّحف القريبة من دوائر القرار، كأنّ الأمر جسّ للنّبض فقط... هل نستطيع أن ننسى؟ هل تستطيع أُسرُنا أن تتجاوز الموضوع؟ هل يستطيع النّاس أن يتذكّروا ما حصل ويَطوُون الصّفحة كأنّها لم تكن. كأنّ ما بها لم يكتب بمداد، بدم، ولكن بماء.

قالوا: مثلكَ كثيرون ممّن تمّ اعتقالهم لا علاقة قريبة لهم بأمور السّياسة، وأشخاص كان اعتقالهم نتيجة تصفية

حسابات صغيرة. الكثيرون هم ضحايا الوشايات الكاذبة. كثيرون كانوا ضحايا زمن الحملات العشوائيّة.

سموا تلك السّنوات بسنوات الرّصاص. اعترفوا بأن أخطاء ارتكبتْ. وفتحوا التلفاز لشهادات الاعتقال. كثيرون حكوا على المباشر. أنا رفضتُ. ظهرَ ضحايا آخرون. كم كانوا كثراً! وأنا كنتُ واحداً منهم لا أكثر.

سالتْ دماء كثيرة، وبعدها جرت مياه غزيرة تحت الجسر مختلطةً بالعَبرات والآهات. كُشفَ الستّار عن أغلب الأماكن الّتي احتضنت الآلام. اختفى أغلَبها أو مُسخَت هويّته.

عرفتُ المكان الّذي كنتُ محتجزاً فيه، كما عرفه الجميع. غير أنّه بالنّسبة لهم لم يكن يعني الشّيء الكثير، عكس الأمر بالنّسبة لي.

كانت حجرتُنا القبو في ضواحي تطوان. كانت في مرج عَيْن مَلُول، والآن صارت محاطة بغابة الاسمنت. آه كم كنت قريبا منكم يا فاطمة دون أن أدري!

تحوّلت البناية الّتي تضم حجرتنا إلى مسكن لأناس رمت بهم الأقدار هناك. أناس وجدوا أربعة جدران فولجوها دون تفكير ودون مراعاة للذّاكرة العويصة لذلك المكان. لكنّ واقعهم المرّ يمحي ويلغي كلّ تفكير وكلّ إحساس؛ حينما يُنهكُ الإنسانُ ألم الفاقة يفقد الشّعور بالأحاسيس الأخرى. فألم الفقر وحاجاته تتلبس ذاته وتغشاها.

أمرُّ من أمام البناية مضطرّاً، بحكم سكني في منطقة قريبة منها. اكتسح البنيان الحقول والمراعي، غير أنّ البناية وحدها ظلّت محاطة بمساحة فارغة، كأنّ البنيان يخاف من الالتصاق

بهـا، ربّمـا مخافـة انتقـال الألـم، وعـدوى الاحتجـاز والقهـر والتّعذيب النفسـي بالانتظـار والتّسـاؤلات التـي لا إجابـة لهـا. كأنّ تلك المسـاحة الفاصلـة تسـيّجها. الأصفـر لونهـا القـديم لـم يتغيّـر أبـداً، أو هكـذا أخـال، كأنّنـي أراهـا بعـين الماضـي، رغـم أنّنـي أتحاشـى النّظـر إليهـا وأُرغـم فكـري علـى التّنقـل فـي التّفكيـر فـي كثيـر مـن الأمـور، لكنّـي رغـم ذلـك أراهـا، كأنّ صورتهـا تنبعـث مـن الذّاكـرة، فأراهـا رؤيـة العـين جاثمـة فـي الفكـر متغلّبـة علـى كلّ تلـك الموضوعـات الّتـي حاولـت أن أشـغل نفسـي بهـا، فتتشـكّل، هـي، عبـارة عـن فَاصِـل لَعِـين بـين انشـغال وآخـر. للطـف الحـظّ أنّ مـروري مـن هنـاكَ لا يكـون إلاّ نهـاراً، وإلاّ لَكَانَ الزّمـن مذكّـرا إيّـاي بمآسـي اللّيـل. وهـي مـآس مضاعفـة.

البنايـة المسـيّجة بالفـراغ تسـيّجني بالأحاسـيس والعواطـف والأفكار والذكريـات. قُربهـا صهريـج مـاء كبيـر لـم أعلـم بوجـوده مـن قبـلُ. تسـبح فيـه أسـماك نُونَـة؛ هـل كَبُـرتْ علـى زفراتنـا وآهاتنـا؟ مـاء مخضـرّ ذكّرنـي بفرحـة رؤيـة خرطـوم المـاء وهـو يمـدّ إلينـا.

تخيّلـتُ أنَّنـي أطـرق البـاب. أتعـرّف علـى هـؤلاء النـاس. هـل يعرفـون معَانـاة الّذيـن أُرغمـوا علـى العيـش فـي المـكان قَبْلَهـم، فهـم أيضـاً مرغمـون علـى العيـش هنـاك، بسـبب الفقـر وضيـق ذات اليـد. وربمـا إغـراءً مـن مالكـي المـكان، بأنّهـم سـيجازونهم علـى عـدم تركهـم لأحـد بالدّخـول إلـى هنـاك. إلـى أن تقـرّر مـا سـتفعله بـه؛ هـل تتركـه ذاكـرة مفتوحـة علـى الجـراح؟ تتركـه أداة للوعيـد بـأنّ مـا كان سـابقاً قـد يعـود فـي أيّـة لحظـة، كأنّ لا صفحـة طُويـت ولا هـم يفرحـون بتخلّصهـم مـن أحزانهـم. أم تهدمـه كأنّـه لـم يكـن بالمـرة؟

الأمران سيّان بالنّسبة لي، فقد أضحى للمكان صورة لا تمحى من الذاكرة. لكن ألم يَصرْ مروري من أمام المكان ورؤيتي له جزءٍ من الدّواء ومن الشّفاء، كأنّ أتعوَّد على الأمر، ويصبح واقعاً في يومي فيغادر نومي، ولا يبعث لي بأيّة كوابيس. الأمر ممكن جدّاً. أم سيظلّ يطاردني في الواقع كما في الحلم؟

لا يطاردني المكان فحسب، باختصاره للمعاناة، ولا يُطاردني الحرّاس بأصواتهم وهمهماتهم، التي كانوا يفتعلونها كأنّهم يخطّطون لأمر ما. كانوا يأتون قُربنا، ويُهمهمون فيما بينهم بأصوات لا نتبيّن معناها، ثمّ يغيبون، ويطول غيابهم، وطيلة مدّة الغياب ونحن نفكر ما هو الأمر الّذي سيأتون به غداً؟ إلاّ أنّ غيابهم في مرّات كثيرة كان يطول، وكانَ الزّمن الّذي نقضيه في الانتظار زمن تعذيب نفسيّ يفوق تأثيره كل تعذيب، والحقيقة أنّنا لم نتفطن لهذا الأمر إلاّ بعد مرور مدّة طويلة من حلولنا ضيوفاً مُرحباً بهم كثيراً هنا وغير مرغوب في وجودهم خارج هذا المكان بل في الوجود ككلّ.

كانت وجوه من قاسموني آهات المكان تطاردني هي أيضاً، تزورني ملامحها بين الحين والآن، وأعقد مقارنات بين حالي الآن وحالهم التي لا أعرفها. هل تطاردهم نفس كوابيسي، هل يعتريهم نفس الشّعور حين يطالعون أسوار هذه البناية؟ لم نكن كلّنا كتلة واحدة متشابهة لا فروق بينها.

❖ ❖ ❖

وكما عُرفتِ الأماكن، فُتحت لوائح الضّحايا من أجل تعويضهم عما عانوه، والاستجابة لمطالبهم الاجتماعيّة والنّفسيّة.

لم يكن أمامي سوى أن أطرق الأبواب، وأعرض ملفي من أجل الانسحاب بسلام، ودون ضجيج. ضجيج لم أتعوّد على

افتعالـه فـي حياتـي. وكنـتُ أفضّـل أن أبتعـد عنـه مـا أمكننـي الأمـر.

وَجدتني في قاعة انتظار الطّبيب مصطفى الحبيب، أنتظره وأنتظر معه فرجاً قريباً. لم أحتجْ لتعريفه بنفسي من جديد، فقد تذكّرني منذ اللّحظة الأولى. كأنّ حالتي بقيتْ في ذاكرته.

تجاذبنا أطراف الحديث. طرح عليّ بعض الأسئلة. أجبتُ عنها باقتضاب شديد. حاول بذكائه الطبيّ أن يستدرجني للموضوع إيّاه، لكنّه لاحظ عدم رغبتي في ذلك. تعجّب من أنّني بقيتُ صامداً في غرفة الدّرس كلّ السّنوات السّابقة.

كانت شهادته الطبّيّة، بعد استبصار لحالتي النّفسيّة، دليلاً على أنّ جرح الاختطاف ما زال موشوماً في الذّاكرة، وأنّه عصيّ على الانمحاء بسهولة: (لا رغبة لديّ في التّجاوب ولا في استرجاع الماضي من أجل استيعابه والتّخلص منه باعتباره تجربة إنسانيّة قد تحدث لعديد من النّاس على الرّغم من قساوتها؛ لكن كيف يكون الإنسان قاسياً على أخيه الإنسان بهذا الشّكل، لا مبرّر عندي لهذا الأمر. أقول في نفسي.)

لا قدرة لديّ للتّجاوب مع الغرباء من الأشخاص. لا رغبة لدي للكلام أو للاستفاضة فيه، خاصّة مع حالات السّهو الكثيرة الّتي تعتريني. أمّا العلاج فيحتاج إلى أشواط طويلة جدّاً، وقد لا يجدي إن لم يكن هنالك باعث داخلي.

سأغادر العمل، بعد أن تمّ احتساب سنوات عملي السّابقة، وهذا سيحفظ قوت فاطمة وابني.

(الزّاوية مرّة أخرى)

لم الهرب من مكان أجد فيه السّلوى والطّمأنينة والسّكينة والسّلام؟! ولم الذّهاب والتّهافت على مكان أجد فيه التّعب والجراح المفتوحة والغبن؟

كان التّجاذبان يطرقان رأسي، فلا أعرف هرباً منهما معاً؛ لكن لم عدم التّوفيق بينهما؟ فالحياة اتزان وتوازن، مقتنع أنا بهذا، غير أنّ لا سبيل ولا قدرة لي على تطبيقه، فالبقاء طويلاً في حفاظ على التّوازن أمر مستحيل، ولهذا لم أسعَ إلى تطبيقه أو محاولة تنفيذه.

أعجز عن المحاولة، وأعجز عن المبادرة بأيّ أمر، فأنا مَقُود لا قائد في هذه الحياة، كأنّ لا موقف ولا رأي لي. صرت مسيّراً إلى قدر محتوم، أسير في طريق معروف مسبقاً، لا أخرج عنها ولا أزيغ، وإن فعلتُ ذلك فلن أصادف سوى العراء والضياع.

(اعترافات متأخّرة جدا)

هل بالإمكان بعد كلّ هذا العمر من الحزن، ونكران الذّات والاستكانة إليها وحدها في مراقبة الأقدار وعيشها أن يكون لاعترافاتي فائدة عليّ، على نفسيّتي، وعلى ذاتي، أم هي مجرد اعترافات لا طائل من ورائها، وليس أمامي سوى الصّمت ملاذاً آمناً من كلّ طلقات الحياة من مسدسها اللّعين ومن سكاكينها الّتي تمعن في الغرز.

لكن ما الّذي يَنفعني به الصّمت؟ أليس الصّمت نوعاً من الموت؟ أليست الحياة صراعاً ومجابهة بحثاً عن شيء، أليسَ عن السّلام والرّاحة النّفسيّة؟! لقد وجدتها دون صراع. فلمَ

لا أدع نفسي ترى الأشياء من زاوية أوسع عوض هذه الزّاوية الضّيقة التي كنت أرى بها الحياة؟! لكن لماذا لا أحكي وأفرغ مواجع قلبي أوّلاً، وبعدها فليكن الصّمت ملاذيَ الأخير. صمتٌ لن يعقبه سوى صمت القبرَ الأبديّ، الصّمت الحقيقيّ الخالي من أيّة تنهيدة أو زفَرة. صمت كلّه راحة وطمأنينة. سديم من البياض إلى أن يتحلّل الجسد ويصبح تراباً خفيفاً ثمّ سماداً للأرض، يُجمع بالكفّين.

ألم يكن بالإمكان أن أختار هذه الطّريق منذ البداية، طريق الخلاص والتّخلّص من تضاعيف الحياة، عوض طريق الأحلام؟

لكن كيف للإنسان أن يختار الطّريق الصّحيح، إن لم يقم بتجريب طرق خاطئة في البداية؟! إن لم يقم بالتّجربة. ويخوض غمارها قبل الحكم عليها. أليست الحياة أشبه برحلتي السّقوط والنّهوض؟! رحلة الحزن والفرح. رحلة اللايقين واليقين، رحلة لا يعرف الإنسان كيف مبتدأها ولا منتهاها. غير أنّ كلّ شيء في لحظات من الحياة يصبح غائماً غير واضح، سديميّا. فيتحوّل الفرح إلى حزن ويتحوّل الحزن إلى فرح... يتحوّل ما يحزن إلى مصدر فرح. وما يفرح إلى مصدر حزن. كأنّهما يتبادلان الأدوار. ويتداخلان في بعضهما إلى أن يحتلّ الآخرُ مكان الآخر.

لم يكن بالإمكان أن تعاش هذه الحياة إلا بهذه الطّريقة، تماماً كما لا يمكن أن تعاش أيّ حياة في العالم إلا بالطّريقة الّتي عيشت بها. الخيارات قليلة، والمتاح منها أشبه بنقطة البداية، إن اخترتَ الانطلاق منها صارت كلّ الاختيارات الأخرى محسومة، مفروضة أكثر منها اختياراً.

(تمت)

رواية مغاربةٍ جمّعهم القدر، قسراً، في حجرة واحدة، دون أن يعرفوا، علىَ سبيل اليقين، سبب ذلك، ولا إلى ما سيؤول إليه مصيرهم.

أشخاص بقدر ما اختلفت حياتهم قبل الاعتقال بقدر ما توحّد مصيرهم خلاله. فنسجت اللّيالي بينهم علاقات إنسانية طريفة؛ فبَيْنَ حكايات«علي الخبّاز» المتقن لتسمية الأشخاص والأشياء، وبين منامات «التّوربيّون» السّائر في نومه، ومرويات «يَكْن» تتشابك أحداث رواية، يزيد من طرافتها أنّ المحتجَزينَ لم يتعرّضوا لا إلى استنطاقٍ ولا إلى تعذيب، إلى أن أُطلق سراحهم بنفس الطّريقة التي اعتقلوا بها.

وبموازاة الواقع الذي عاشته الشّخصيّات داخل الحجرة -المعتقل، يطلّ، داخل الرواية، الواقع الأسريّ للشّخصيّة الرئيسة ممثّلا، خاصّة، في الزّوجة «فاطمة»، ليخلق لنا تشابك الرّواة والأصوات والوقائع، ويرسم لنا صورة معبّرة عن واقع عاشه المغرب سنوات عُرفتْ بسنوات الرّصاص.

«ليالي الأوراد» هي رواية ليالي الحلم بسعادة الإنسان في الحياة، و ليالي البحث عن طمأنينة مفتقدة، سيرة جيل كامل عاش سنوات الخوف والقهر، وهي أيضا سيرة بطل عاش بعد خروجه صراعاً داخليّاً حول الوجود والحياة.

ISBN 9789948372318
9 789948 372318

دار راشد للنشر
Dar Rashid Publishing